لقطـات من تاريـخ منطقـة الهجـار
فى المجالات الثقافية والحضارية والسياسية

المهدى البوعبدلى
مـؤرخ ـ الجـزائـر

اننى بمناسبة انعقاد الملتقى الثالث عشر للفكر الاسلامى بتمنراست قاعدة الهجار ومبادرة مجلة الاصالة كعادتها لتخصيص عدد من أعدادها لهذه الملتقيات ، اخترت أن أتناول بالبحث هذه الدراسة التى هى كما يدل عليها عنوانها : « لقطات من تاريخ منطقة الهجار فى المجالات الثقافية والحضارية والسياسة » اذ هي النقطة الاولى من النقاط الاربع ، التى تنحصر فيها دراسات الملتقى · لفتت هذه النقطة أنظار الباحثين والمؤرخين من عهد قديم ، يرجع الى عشرة قرون قبل الميلاد وقد خصصت بدراسات وتآليف لازال معينها لم ينضب بعد ، هذا وان كان كثير من الباحثين هدفهم التعمق فى البحث العلمى لهذه المنطقة التى جعلها موقعها الجغرافى صلة وصل بين حوض البحر الابيض المتوسط وتخوم السودان ، وبالمطبع كانت هذه المنطقة ممرا للقوافل التجارية من قديم أي قبل الاسلام وبعده ، كان منطلق الاعتناء بتاريخ الهجار وسكانه ـ التوارق ـ من عهد افلاطون وهيرودوت وغيرهما ، واننى فى هذه الدراسة سأقتصر على تاريخ ما بعد الاسلام بايجاز ثم أركزها على

أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين الجارى الميلاديين ، ولا يمنعنى هذا الالتزام ، من التعرض الى تاريخهآ القديم ، كلما جرنى الى ذلك سياق الحديث، اذ تاريخ هذه المنطقة ـ كما سبق لنا ذكره ـ كان محـل عناية مؤرخى مختلـف الاجناس ، ولا زالت استمرارية تلك العناية الى عهدنا هذا ، كما سنبين ذلـك. نذكر من بين المؤرخين والرحالين المسلمين الذين اعتنوا بتاريخ هذه الناحية ابن حوقل وأبا عبيد البكرى وغيرهما ، فتعرضوا للقوافل التجارية التى كانت تجوب الطريق ، انطلاقا من بلاد المشرق ـ على طريق مدينة القيروان عاصمة افريقيا ، ثم على طريق قلعة بنى حماد ، بعد سقوط القيروان ـ الى أوداغست منبع مناجـم الذهب ، ذلك الذهب الذى وصفه أبو عبيد البكرى بقوله : « وذهب أوداغست أجود ذهب الارض وأصحه » وقال فى موضع آخر يصف « قلعة بني حماد » التى ورثت مكانة القيروان الاقتصادية ما يلى : « وهى اليوم مقصد التجار ، وبها تحل الرحال من العراق والحجاز ومصر والشام وسائر بلاد المغرب » وقد عرف هذا الطريـق عند القدامى بطريق الذهب ، هذا ولم تكن الناحية الاقتصادية ، التى كانت منطقة الهجار من أشهر محطات قوافلها التجارية فى طريقها الى أوداغست ، هي الداعى الوحيد الى اهتمام الباحثين والمؤرخين ، الذين سبق الحديث عنهم ، بل كانت هناك دواعى أخرى ، منها آثارها الحضارية ، كبقايا فن النحت والتصوير ، كما ان كثيرا من العلماء المتخصصين فى دراسات السلالات البشرية ، ذهبوا الى أن التوارق ـ سكان الهجار ـ من بقايا سكان جزيرة خسفت بسكانها الارض ، ولم يبق مـن سكانها الا أقلية اندمجت فى قبائل التوارق ، وهذه الاقلية تعرف « بالمازيك » الذين تحدث عنهم المؤرخ اليوناني هيرودوت Hérodotte وهذا لا يمنع ـ فى نظرهم ـ ان أغلبية سكان التوارق ، من أصل بربرى ، كما سنتحدث عن ذلك بمزيد مـن التفصيل .

بعد الاحتلال الفرنسى للجزائر سنة 1830 توغلت فرنسا واحتلت أجزاء كثيرة من الصحراء ، والسنغال ، وحينئذ فتحت أبواب هذه المناطق الى مختلف رواد الصحراء من عسكريين ومدنيين وقسيسين ، تقمصوا مختلف الاردية ، لتغليـط السكان وتضليلهم ، حيث كانوا يتتبعون حركاتهم بمزيد من الحيطة والحـذر ، ولهذا كان جل هؤلاء الرواد يتعرضون للاغتيال ، وكان المسؤولون الفرنسيون يخفون الاسباب الحقيقية لهذه الاغتيالات التى كثيرا ما ينسبونها الى اللصوص

وقطاع الطرق ، هذه هى المواضيع التى سأتعرض الى دراستها فى هذا البحث ، بعد التعريف بهذه المنطقة ، كانت تمنراست هي قاعدة بلاد التوارق وهي محاطة بقرى يسكنها الحراطين والسود الذين كان التوارق يسخرونهم للخدمة التى يأنفون من مباشرتها بأنفسهم كالحراثة ، والرعي ، وما الى ذلك ، استولى الفرنسيون على ناحية تمنراست ابتداء من أواخر القرن التاسع عشر ، ومن جملة من وصفها بعد الاحتلال الفرنسى مباشرة ، الراهب الأب دوفوكو الذى اختارها للاقامة من سنة 1905 الى أن لقى حتفه بها فى دسمبر 1916.قال دوفوكو:« اخترت الاقامة بتمنراست التى وجدت فيها اثنين وعشرين كانونا - أي أسرة - » ثم قال:« موقعها فى قلب جبل الهجار ، منعزلة عن القرى الآهلة بالسكان ، يلوح لى أن هذه القرية ستبقى بعيدة عن العمران الاوروبى ، لا تتخذ فيها قشلة عسكرية ، ولا محطة للبريد والمواصلات ، كما لا تتخدها البعثات مقرا ، ولهذه الاسباب اخترت هذا المقر المهجور ، وألقيت فيه عصا التسيار » اه وقبل أن تتخذ تمنراست قاعدة المنطقة ، كانت القاعدة هي حصن موتيلانسكى ، ولم يستبدل حصن موتيلانسكى بتمنراست الا فى سنة 1920 ، كانت منطقة الهجار اثر الاحتلال الفرنسى تمتد من الشمال الى الجنوب بنحو الالفين كلم . ومن المشرق الى المغرب بنحو الالف كلم . وجميع سكان المنطقة لا يجاوز عددهم عشرة آلاف نسمة ، ورغم استحالة تمنراست الى قاعدة الهجار فلم ينم عدد سكانها الا ببطء ، حيث انه عندما زارها الوالى العام بالجزائر اذ ذاك وهو كارد (سنة 1932) رافقه الجنرال دو شان (1) Deschamp الذى دون رحلته وقال مقارنا بين حالة تمنراست اذ ذاك ، وما سبق من وصف الاب دوفوكو عندما نزل بها سنة 1905 فقال : « والآن استحال عدد الكوانين ونما ، فبعد أن كان اثنين وعشرين وصل الى أربعين » ثم قال الجنرال دو شان « ويطل على سكان هذه الكوانين حصن لابرين Laperrine وقد بنى بالقرية نزل كاتلان Hôtel Catelan ومركز للبريد ، وسكنها الاوروبيون ، كما أقيم بها معرض سنة 1930 » اه

هذا ما وصلنا من وصف تمنراست بعد الاحتلال الفرنسى .

1) دوّن الجنرال دوشان رحلة الوالى العام كارد ونشرها بنشرة الجمعية الجغرافية بالجزائر المؤرخة فى جانفى 1932 بعدد سنتها السابعة والثلاثين (37eme année)

ولنرجع الى الوراء قليلا لاستعراض تعاريف بعض المؤرخين المسلمين ، من بينهم الرحالة ابن بطوطة والمؤرخ عبد الرحمن ابن خلدون،ثم المؤرخ الجزائرى محمد ابو راس الناصرى (2) الذى قال فى تأليفه « عجائب الاسفار ٠ ولطائف الاخبار » (3) عند تعداده لقبائل صنهاجة فقال « قلت وقد أخبرنى الطالب الاجل ، الناسك الامثل ، شقيقى سيدى عبد القادر ، برد الله ضريحه ، وأسكنه من الفردوس فسيحه ، وكان ذا معرفة بتلك البلدان لما مر بها وتخطاها الى السودان ٠٠٠ وكان اخباره لى بذلك ، لما سألته سنة أربع وتسعين ومائة وألف » ٠٠٠ الى أن قال « ثم ان صنهاجة أهل اللثام المعروفون عندنا بالتوارق مساكنهم بين السودان وبين الرمال التى هي تخوم بلاد البربر ، متصلون بالبحر المحيط لهذا العهد ، فى المغرب الى ساحل النيل بالمشرق ، وهم الآن على اختلاف الكلمة ، واختلاف السنن على عهدهم الاول ، بعضهم يعطون الطاعة لملك السودان ويفرون فى عسكره ، ولهم شرف بأرضهم ، وتمر عليهم القوافل الى السودان ،فكان أحب شيء عندهم الدخان ، وان أراد أحدهم الاكل وهو فى أهل الكبار تنحى قليلا ، ونصب درقته بينه وبينهم ، حذرا من أن يرمقوه ، وان ظفروا فى غزوهم بمال ، أخذوا منه الابل والبقر ، وأما الغنم فيأخذها حشمهم يقال لهم العنادى ، وبيوتهم من الجلد،وان ذبحوا لضيف جمعوا له كل اللحم ، فيأكل ، والباقى يتزود به ، وبازائهم رهط يقال لهم كنت (بإشمام وهي الآن بعضها تابع لمالى ، وبعضها لموريطانيا) وأفراد هذه القبيلة ينتمون الى بنى أمية والانصار، لم تتغير اللغة العربية عندهم الى الآن »،ثم واصل أبو راس حديثه فقال « هكذا أخبرنى شقيقى سيدى عبد القادر رحمه الله ، فقبيله كدالة منهم – أي من صنهاجة – قبلة المعقل عرب السوس الاقصى ، ولمتونة وتريكة فى مقابلة ذوى منصور » ثم قال أبو راس « ومر الكلام على ملوك لمتونة ، ومسوفة فى مقابلة المغرب الاوسط، ولمطة فى مقابلة عرب الزاب ، وتركا فى مقابلة افريقيا الخ ٠٠٠ والخيل عندهم قليلة أو معدومة ، ويركبون من الابل القارن يسمونها النجيب ، ولهم مع بنى سعيد من بطون رياح عرب ورقلة وقائع وغارات الى الآن ، ويغيرون أيضا على

2) محمد أبو رأس الناصرى الراشدى (1165 – 1237 هـ) له تآليف عديدة ٠

3) « عجائب الاسفار ولطائف الاخبار » شرح به منظومته السينية التى هنأ بها الباى محمد بن عثمان فاتح وهران سنة 1206 هـ والكتاب لم يطبع الا انه ترجمت كثير من فصوله ونشرت فى المجلة الافريقية والمجلة الاسيوية الفرنسية ٠

سوف وغدامس وفزان وغيرهم ، وأما أهل ورقلة فهم من بنى يفرن ومن مغراوة، وأميرهم يقولون له السلطان ، وعلى عشرين مرحلة الى القبلة منحرفا قليلا الى المغرب ، بلدة نكدة لصنهاجة ، وقد اجتاز بهم نفر من تجار مالى أيام أبى عنان ـ الملك المرينى ـ فأعطوهم اثني عشر ألف راحلة زكاة ، وأما أهل فجيج وتيكرارين وتوات ، وأكثر مصاب فكلهم صنهاجة وبعض مصاب من لماية والله أعلم » اهـ ما ذكره أبو راس ، اثبته على طوله ، واقتصرت عليه دون غيره من تعاريف ابن بطوطة وابن خلدون ، لقرب عهده ، ولما اشتمل عليه من التفاصيل ، حيث صور لنا حالة المنطقة وسكانها ، تصوير خبير شاهد عيان ، اذ نجد معظم من تعرض لتاريخ هذه النواحى من المتاخرين الا واعتمد فى كتاباته على المصادر الاجنبية ، وجلها خلط بين التاريخ والاساطير ، كما انها لا تخلو من تزييف وتشويه،وقد تصدى لكشفها ، والرد على أصحابها ، كاتب فرنسى معاصر، سنتحدث عنه فى هذه الدراسة ، وقد رأيت ان الحق تعريفا له أهمية لمؤرخ معاصر وهو هنرى تيراس (4) Henri Terrasse ، قال فى تأليفه « تاريخ المغرب » فى التعريف بدولة المرابطين اللمتونيين : « وقد عرف الصنهاجيون بعد الفتوحات الاسلامية بالملثمين ، وكانوا متفرقين من غدامس الى المحيط الاطلنطى ، ومن جنوب المغرب الى السنغال والنيجر ، وفى القرن التاسع الميلادى كانت جموعهم تشمل لمتونة ومسوفة ، وكانوا يجوبون الصحراء ، وحينئذ اتخذوا أوداغست قاعدة حكمهم ، وقد نظموا التجارة بواسطة القوافل التى كانت تصل الى تخوم صحراء مصر » اهـ

نكتفى بهذا القدر من التعاريف بهذه المنطقة التى اهتم بها المؤرخون القدامى والمتأخرون ثم لفت أنظار الكتاب والباحثين اليها من جديد ، استيطان الراهب دوفوكو لقاعدتها تمنراست ، وكانت مدة اقامة دوفوكو بها ، مرتبطة بأحداث عقائدية وسياسية اجتاحت المنطقة ،ولازالت محل عناية الباحثين من مختلف الملل والنحل ، اذ حياته كادت أن تجمع بين النقيظين : الحياة المادية والحياة الروحية،ثم تغلبت حياة الزهد والتقشف على حياة البذخ والترف والاستهتار ، وهذا الصراع بين الحياتين صبغ كثيرا من الرجال الافذاذ ينتمون الى مختلف

---

4) هنرى تيراس كان استاذا بجامعتى الجزائر والرباط فى الخمسينات،له كتاب سماه «تاريخ المغرب» كان يدرس بثانويات المغرب الاقصى كما أن له تآليف قيمة فى الآثار الموحدية .

الاجناس والديانات ، وقد شخصه أحد الشعراء المعاصرين فى حياة أبى الطيب المتنبى الذى تنازع فيه هذان العاملان وقال فى تأبينه الالفى على لسانه :

يا لعمر مشيا فيه معا

جسده النازل عن شهوته — سلم العارم روح السامية

فهو لا ينفك عن شهوته — وهي لا تعرف الا الالما

هذا وان الاب دوفوكو كما يقال قتلت حياته بحثا ٠ وهي كغيرها من تراجم أمثاله ، الا أن هناك بعض الجوانب منها فيه عبر ، فالرجل الذى كان ينتمى الى أسرة نبيلة ثرية ، وقد تخرج من كلية حربية ضابطا ، واطلق لحياته الاستهتارية عنانها حتى كان كثير من وزراء عهده يعجزون عنها، اذ كان ينفق فى مباذيله حوالى خمسة ألف فرنك شهريا فى التسعينات من القرن الماضى الميلادى ، وبعد اعتناقه للمسيحية تحول الى حياة الزهد والحرمان والتقشف،حتى نصحه أطباؤه بأنه ان تمادى على تلك الحياة يهلك ، وبعد حياة مليئة بالمفاجآت والاضطرابات ، والخوف والجوع ، تفرغ لمهمته التبشيرية،حيث ختم به المطاف بتمنراست ، وقد أدرك من أول وهلة ان مهمته فى مجال التبشير لم تلق نجاحا ، ولكنه لم يبال بنتائج أعماله ، ولم يستعجل جني ثمارها ، بل رأى انه عليه أن يخطط الخطط ، ويضرب المثل للتضحية ، فبعد أن ضحى بالحياة المادية فى جميع مظاهرها : حياة القصور والسهرات والمطاعم الانيقة ، صار يلبس الخشن من الثياب ـ عباءة الصوف ـ وصار يأكل الخبز أو التمر والحليب حتى سقطت أسنانه،ثم اختار سكنه قرية تمنراست المنعزلة عن العمران ، وعندما اندلعت الحرب العالمية الاولى تنازع فيه عاملان أيضا، مهمته التبشيرية، ووطنيته، وهو وان كان يرى ان الدين فى خدمة الوطن، فقد تغلبت عليه روح الوطنية، وصادف اذ ذاك اندلاع الثورة الليبية على الايطاليين سنة 1916،تلك الثورة التى دعمها التوارق، وسكان الصحراء الذين كانوا تحت حكم الفرنسيين ، وكلفت الايطاليين والفرنسيين معا خسائر فادحة، فعندئذ خرج الاب دوفوكو من عزلته ، واسترجع بدلته العسكرية التى خلعها عند عبوره لبلاد الصحراء ، واننى سأتعرض بمزيد من البيان لموقفه الذى جر له اغتياله بتمنراست فى دسمبر 1916 فى هذه الدراسة ، وانما لا يفوتنا أن نذكر ان مدة اقامة الاب دوفوكو بتمنراست من سنة 1905 الى 1916 فتحت الابواب لمختلف الدارسين

فأعادوا النظر فى تاريخ هذه المنطقة، وبالطبع كانت كتاباتهم لا تخلو من مبالغة وتزييف، مما أدى ببعض زملائهم الى الرد عليهم على أضواء الوثائق التى فتحت من جديد ، وأعيد النظر لماضى الهجار بعد عبور الرعيل الاول من رواد الصحراء الذين سبق الحديث عنهم ، كان فى طليعة من تولى الرد على الكتاب المذكورين الصحافى الفرنسى كلود موريس روبير (5) فى تأليفه المسمى : « ناسك الهجار » (6) خصصه لمراحل ترجمة دوفوكو نستعرض منها بعض اللقطات، قال: « بعد مرور ربع قرن على احتلال الجزائر ، كتب أحد الصحفيين ما يلى : « ان التوارق يكنون الاحترام والاعجاب للفرنسيين ، فالتوارق أمة قوية مهابة يرغبون فى توثيق علائقهم مع الفرنسيين فى ميادين التجارة ، وبالفعل فان هذه الامة تشغل موقعا واسعا بين الصحراء الجزائرية وبلاد السودان تمبكتو Tombouctou ، ثم قال: « يبلغ عدد سكان التوارق مليون نسمة، وقد جعلهم موقع بلادهم الجغرافى صلة وصل بين الجزائر وتمبكتو ، ثم تمتد هذه الصلة فيما بعد بيننا وبين مستعمرتنا السنيغالية » اهـ

وعقب الصحافى موريس روبير على هذه الجمل بقوله :« هذه النزهات نشرت بجريدة صدرت فى وهران سنة 1856 » ثم أضاف عينة أخرى فقال: « وبعد نصف قرن فقد مصباحنا انارته، حيث ان الكاتب پول لوروا بوليو Paul Leroy Beaulieu الكاتب الشهير كتب من دون حياء أو خجل ، مخاطبا رجال حكومة فرنسا بقوله : « انشروا الامة فى هذه النواحى الشاسعة ، وأضيفوا الى ذلك استغلال المياه للانتفاع بها ، فحينئذ يمكن للصحراء بعد حقبة من الزمان أن تغذى عشرة ملايين نسمة ، ان لم تكن عشرين مليونا » .

ثم واصل الصحافى روبير حديثه بقوله: « اننى لم أخترع شيئا فيما ذكرته فذلك ما نقلته من تأليف سماه صاحبه : « الصحراء » نشر سنة 1904 وهذا الكتاب يوجد فى واجهات كل المكتبات بالجنوب - أي بالصحراء - حيث لم نجد أثرا لكتاب « اكتشاف المغرب » تأليف الاب دوفوكو (وهنا بين قوسين يرى الصحافى روبير أن دوفوكو لم يخف فى تأليفه المذكور تشاؤمه من مغبة احتلال الصحراء ، ولهذا تواطأ أنصار الاحتلال لبلاد الصحراء على ترويج التآليف التى تدعم آمالهم وأحلامهم، وبالطبع

5) كلود موريس روبير Claude Maurice Robert محرر جريدة صدى الجزائر اليومية L'Echo d'Alger

(6) « L'ermite du Hoggar » Edit. Baccenier, Alger, 1939.

كان المرّوجون لهذه المغريات ضباط الجيش الذين تمكنوا من استرجاع نفوذهم الذى فقدوه بالشمال بعد استبدال الحكم العسكرى بالحكم المدنى) ثم واصل الصحافى روبير حديثه بقوله « أما تمبكتو ملكة الصحراء التى لا زالت توصف بالخفية رغم دنسها وقذارتها فهي كما يقال عن القطران : انه يشفى الجرب كما يشفى السودان الفقر » ثم علق على ما نقله بقوله « ان الكتاب الذين يسبحون فى بحر الخيال والاوهام لا زالوا يحلمون بالقوافل التى تحمل دقيق الذهب ، وريش النعام ، والعاج ، والزمرد الذى أشيع ان قافلة رائد الصحراء فلاتير (7) Flatters اكتشفته بكثرة،وكان من بينه من يبلغ حجم بيض الدجاج » ثم قال الصحافى روبير : « والآن عندما أزيل القناع عن التوارق انحل اللغز ، فدقيق الذهب موجود ، الا انه يتمثل فى رمال التلول ... » ثم قال « ينبغى أن نعيد النظر لتصحيح موقفنا فى قيمة الصحراء الاقتصادية ، فانها منعدمة تماما ، وستبقى منعدمة ، وانما تنحصر قيمتها فى المجالين السياسى والموقع الجغرافى (المعبر عنه الآن بالاستراتيجى) فالصحراء برزخ ، يفرق بين عالمين ، كانت العداوة بينهما محكمة ، عالم افريقيا البيضاء ، وافريقيا السوداء ، وبعبارة أصح عالم متمدن وعالم همجى متخلف»، ثم أضاف الصحافى روبير الى ما قاله مخاطبا قراءه بقوله : « انكم كثيرا ما تطلعون على أمثال هذه الترهات التى لا يقصد منها الا ذر الرماد للسواح والصحفيين الاغبياء مثل قولهم « الصحراء امبراطورية ، مساحتها تعادل مساحة فرنسا عشر مرات » .

« والحقيقة ان هذه الامبراطورية فارغة وستبقى فارغة ...»الى أن قال: « ذكرت فى الطبعة الاولى من هذا الكتاب (أي ناسك الهجار) ان عدد التوارق يبلغ 7800 نسمة،منها خمسة آلاف من الهجار وثمانمائة وألفين من أزجر ، وقد كنت سخيا حينئذ ، اذ نشرت الصحافة الاحصائيات الاخيرة لعدد السكان ، فذكرت ان عدد سكان الهجار يبلغ ثلاثة آلاف ، وعدد اخوتهم ازجر من سكان منطقة جانت يبلغ خمسمائة وألف ، فالجميع خمس مائة وأربعة آلاف ، ولهذا نرى اننا بعيدون كثيرا من عدد المليون نسمة ، الذى قدمه الصحافى الوهرانى ، سنة 1856 » ثم واصل الصحافى روبير حديثه بقوله « ومن جملة ناشرى هذه

7) ذكر هذه الرواية القبطان بروسلار
Capitaine Brosselard : « Les deux missions Flatters »

الترهات الكاتب هنرى دو ڤيرى Duveyrier فاذا كانت حالة التوارق الذين عرفهم بمثل ما وصفهم به سنة 1860 ، فكيف نصف حالتهم التى هم عليها فى وقتنا هذا» أي سنة 1938 · ثم قال الصحافى روبير « ومن ذلك العهد ـ أي صدور كتاب دو ڤيرى Duveyrier ـ نجد سواحا وكتابا وموظفين تباروا وتسابقوا الى خلق بلاد الهجار البعيدة كل البعد عن الواقع التاريخى ، أكثر من بعد بيير بونوا Pierre Benoît الذى ضمّن روايته المسماة « اتلانتيد » ، تلك الرواية التى فتحت للكتاب الخياليين الافتراضات والتكهنات من بينها ان بلاد الهجار هي ينبوع البربر ، وان موقعها هو محور البشرية » الخ ·

ثم قال الصحافى روبير رادا على الكتاب الذين حاولوا تزييف التاريخ، ومن بينهم قوتى Gauthier صاحب كتاب « الصحراء » الذى نقض الصحافى المذكور بعض ما كتبه فى تأليفه « الصحراء » الذى روّجه المستعمرون العسكريون ، الا ان الصحافى روبير اقتصر فى رده عليه علي ما يتعلق ببعض الجوانب الاقتصادية والجغرافية ، وترك ما يهم موضوع بحثنا وهو المتعلق بالتوارق ، فتوليت نقله اتماما لموضوع الدراسة . قال قوتى فى كتاب « الصحراء » المذكور متحدثا عن التوارق وميزتهم عن بقية سكان الصحراء ما يلى : « ان هؤلاء النـاس ـ أي التوارق ـ أقرب الينا من العرب، فانهم متفتحون ، والسبب فى ذلك ان اسلامهم ضعيف ، سطحى ، فهم لا يعرفون كلمة عربية ـ العربية لغة القرآن ـ وهم لا يصومون شهر رمضان ، ونساؤهم متحررات ، ولهذا فهن أقرب شبها بنسائنا ، وهم يتحدثون باللغة البربرية ، ويمتازون عن بقية البرابر ، انهم لا زالوا يحتفظون بكتابة هذه اللغة ، دون بقية سكان العالم ، حيث انفردوا باستعمال الحروف الهجائية الليبية القديمة المشهورة بحروف تيفنار Tifinar »، وختم قوتى فصله هذا بقوله « من جملة ما ورثه التوارق من أصلهم البربرى ، وعضوا عليه بالنواذج، هو بغضهم للعرب الفاتحين. ولهذا فالحروب بينهم متواصلة ، كما لا زالوا يحتفظون بذكر كسيلة البطل الاوراسى قاتل عقبة الفاتح العربى الاول سنة 683 م· » وهذه الترهات لم يخصصها المستعمرون للتوارق فقط ، بل استعملوها أيضا لجلب البربر وتضليلهم لحاجات فى نفوسهم ، والا فانهم فى دراساتهم الخاصة بمجتمعاتهم لا يخفون انطباعاتهم عنهم ، ويعددون مثالبهم كما نراه من بعض انطباعات الاب دوفوكو فى مذكراته عن التوارق أنفسهم ·

نكتفى بهذه العينات أو اللقطات التى ـ من حسن الحظ ـ لم يغتر بها بعض الكتاب أمثال الصحافى كلود موريس روبير الذى يعد من غلاة المعمرين ، هذا واننى ان خصصت لهذه الآراء صفحات ، فليس الغرض من ذلك احياء الاحن والخلافات التى كانت توحى لهؤلاء الكتاب ، حسبما تدعوهم اليه المصالح الاستعمارية أو الخلافات العقائدية ، فاننا فى عصرنا هذا نجتاز ظروفا تسعى فى طي صفحات التطاحن والخلافات وتستبدلها بالتعاون فى الاشادة بالقيم ، وبتوحيد الجهود فى احياء التراث العالمى ، سواء منه الثقافى والحضارى، والتعاون على نشره وتجريده من الرواسب التى ساعدت فى تضخيمها الاغراض السياسية والعقائدية ، ومما يجعلنا نتفاءل للقضاء على هذه الرواسب السلبية ، ما نرآه من التسابق الى عقد الملتقيات والمؤتمرات فى بلدان مثل روما واسبانيا وصقلية وباريس ومالطة لدراسة حضارات البحر الابيض المتوسط وغيرها من الحضارات ، واننا بنقل ردود الصحافى روبير على مؤلف كتاب « الصحراء » نريد تجريد التاريخ مما ألصقه به بعض المغرضين ، الذين لا زالوا متشبثين بآرائهم ، أي بالرجوع الى مثل هذه المصادر المزيفة ، ويروى ان الفتوحات الاسلامية ببلاد المغرب العربى جنت على البلاد والعباد ، حيث وقفت عجلة الحضارة، اذ كانوا يرون أن هذه البلاد طبعها الفنيقيون ثم الرومان والبيزنطيون بالطابع الذى حاول استرجاعه أقطاب الاستعمار العقائدى ، أمثال الكاردينال لافيجرى ، ولكنهم نسوا ان الاسلام الذى نجح فى أداء رسالته ، وعمت تعاليمه سكان الشمال والصحراء والسودان ومن بينهم التوارق ، رغم ترهات الكتّاب الذين ذكرناهم ، ورد عليهم الصحافى موريس روبير . وهناك أدلة أخرى تثبت استماتة التوارق فى سبيل العقيدة الاسلامية ، لا فرق بينهم وبين مواطنيهم من مختلف قبائل الصحراء والسودان ، فمن ذلك ما ذكره الجنرال مينى Meynier (8) فى دراسته القيمة التى خصصها للثورة العارمة التى كان منطلقها من جنوب ليبيا على الايطاليين ، ثم آزرها بقية سكان الصحراء التونسية والجزائرية ، ومن بينها سكان التوارق بأجمعهم ، وهذه بعض اللقطات نثبتها فى هذه الدراسة مما ذكره الجنرال مينى. قال فى معرض حديثه عن مراحل هذه الثورة وصبغتها: « بعد اخلاء

8) نشر الجنرال مينى دراسة تحت عنوان : « الحرب المقدسة للسنوسية فى افريقيا الفرنسية » (1915 ـ 1918) بالمجلة الافريقية سنتها الرابعة والثمانين 1939 .

تبستي Tibesti فى أوت 1916 نتج عن ذلك تحركات بالمهضاب العليا من السينغال والنيجر منطقة التوارق الذين استعدوا للثورة استجابة لدعوة قبيلة كل السوق Kelessouk وكذلك التوارق من سكان أوليمندن (توارق تمبكتو) وكانت من الغلطات التى ارتكبها الفرنسيون القاءهم القبض على الرئيس فيهرون Fihroun وسجنوه بغاو Gao بعد ما حكموا عليه بخمس سنوات سجنا ، وقد تمكن من الفرار من السجن فى فبراير 1916 والتحق بعشيرته ، وبمجرد اتصاله بأفراد عشيرته ، كاتب حاكم تمبكتو الفرنسى برسالة استهلها بقوله « ان حكم الكفار قد انتهى » ثم أردف هذه الجملة بقوله « واننى أعلن الحرب على الفرنسيين» وقد وقع هذه الرسالة رؤساء القبائل الذين كان من بينهم توارق الهجار الذين كان يترأسهم موسى أق امستان ، تحصن أفراد القبيلة بمرج أمدرامبوكان Amderambouken حيث يجتمع واديا ازاواق واسكارى ، كان عدد إبلهم خمسة آلاف وعدد البقر خمسة عشر ألفا وعدد الغنم ثلاثين ألفا ، أمكن لافراد القبيلة التحصن بهذا المرج ، وهنا وصف لنا الكاتب ما لا يترك شكا لاحد بأن العقيدة الاسلامية العميقة فى نفوس السكان ، هي التى كانت تذكى هذه الحروب ، التى كثيرا ما نجد بعض الباحثين سواء من كانوا يؤيدون المعمرين أو من كانوا يتفيقهون يحاولون ارجاع هذه الثورات أو التمردات ، رد فعل لاهانة لحقت حاكما أو رئيس قبيلة ، أو كانت لاغراض مادية محضة ، والجنرال مينى الخبير بدراسات تلك القبائل ، التى سجل مراحل ثوراتها على الايطاليين ، ثم على الفرنسيين ، وكانت له معطيات جمعها ، عندما تولى التفتيش العام بشمال افريقيا ، ذكر وصفا رائعا لهذه القبائل فى بعض معاركها قال: « كان المحاربون يجتمعون للصلوات على سوط الطبل وأناشيد السلام » ، ثم قال: « كانت هذه الاناشيد التى تنطلق بها أصوات المحاربين فى سكون الليل ، شبيهة بأناشيد أبطال هوميروس Homère فى حروب طروادة (9) فمن هذه الفقرات تتجلى الحقيقة التى لا يتطرق اليها شك ، ان سكان مناطق التوارق برهنوا على انهم دافعوا عن العقيدة الاسلامية . ولنرجع الى الوراء قليلا ، لنبين ان رواد الصحراء الذين قتلوا أثناء أداء مهماتهم بالصحراء ، وخصصهم الصحافى روبير بقائمة طويلة، لم تكن غاياتهم واحدة ، اذ كان بعضهم يرى ان مصلحتهم العليا خصوصا فى

9) نقل الجنرال مينى هذه الفقرات من تاليف Dr A. Richer : « Les Touaregs du Niger »

الميدان الاقتصادى ، تفرض عليهم الاتصال والتعاون مع السكان المسلمين ، ولما كان التاريخ يعيد نفسه ، فاننى أثبت ترجمة أحد الرواد الذى لعب دورا وذهب ضحية خصومه الاقوياء ، هذا الضابط الفرنسى هو من أسرة نبيلة مثرية ، ولما كان الدور الذى حاول أن يلعبه له خيوط تتصل بالتزاحم والصــراع بين الدول والاحزاب ، وقد ظهرت فيه الرأسمالية اليهودية التى كانت تهيمن على سياسة الدولة الفرنسية اذ ذاك ، ظهر فى الافق هذا الرائد الذى لقي حتفه بالصحراء ، وعدّ فى قائمة ضحايا رواد الصحراء ، الا أن غايته وهدفه ، كانا يخالفان كثيرا من زملائه، ولهذا تتبعت ترجمته ومختلف نشاطاته بايجاز ، كان هذا الضابط يعرف بالمركيز دو موراس Le Marquis Do Morès وهو علاوة على ثروة أسرته تزوج بامرأة أمريكية مثرية سنة 1882، وفى سنة 1888 زار بلاد الهند والصيـن وحاول احداث السكة الحديدية التى تربط بين الهند والصين، وبعد رجوعـــه الى فرنسا صادف الحملة ضد اليهود فانخرط فى صفوفها ، وكان من أبرز محررى جريدة « الكلمة الحرة » (La libre parole) 1892 لســـان حـــال أعـداء اليهوديـــة الرأسمالية ، ولهذا جرّت عليه مقالاته عدة مبارزات مع كثير من الكتاب اليهود أمثال دريفيس Dreyfus والقبطان ماير الذى قتل فى المبارزة وغيرهما .

لم يكتف الماركيز دو موراس بمحاربة اليهود فى الميادين الصحافية بباريز ، بل شد الرحال الى الجزائر ، حيث كان للحركة أنصار أقوياء ، فسعى فى ضـم المسلمين لهم ، ولما وصل الى الجزائر عقد تجمعا كبيرا بباب الواد ، ألقيت فيه خطب ووقعت توصيـــات فحواها التحذير من الرأسمالية اليهودية الــتى كانـت تحميها انكلترا ... ثم واصل الماركيز جولته الى تونس وذلك فى نفمبـر 1895 وكان قصده الذهاب من تونس الى السودان على طريق زندر Zinder وأقدز Agadès لفتح باب التبادل التجـــارى. وفى 29 مارس 1896 القى محاضرة بالمسرح البلدى فى تونس كان عنوانها « عبور بلاد السودان الفرنـــسى بالتعاون الاسلامى الفرنسى » « La pénétration du Soudan français par l'allience franco-islamique » كان من جملة الشخصيات التونسية المؤيدة لنظرية الماركيز دو موراس الشيـخ الاصرم صاحب « الرحلة الى المناطق السنوسية » التى ألفها بمشاركة المراقـــب المدنى الفرنسى فكتور سير Victor Serres ، وبعد الفراغ من المحاضرة وقـــع الحاضرون على التوصية الآتية : « ان الفرنسيين والمسلمين وسكان مناطق البحر

الابيض المتوسط (Les Méditerranéens) الذين اجتمعوا بتونس،وعددهم ألفان، يؤيدون تعاون الفرنسيين والمسلمين ، وكذلك سكان شواطىء البحر الابيض المتوسط ، للدفاع عن مبدإ الاستقلال الذاتي ، والتعاون لتحرير الارض والسكان من قبضة الرأسمالية التي يشخصها الانكليز في زماننا هذا ، اذ هم ممثلوها في الميدان السياسي ، ان هذا التجمع المنعقد في تونس يقدم الى المسلمين الذين يحاربون اليوم على ضفة وادي النيل تحياته وأجمل أمانيه » ثم قال الكاتب (10)«ان الماركيز دو موريس بشجاعته وصراحته لقي اقبالا عند أعيان المسلمين ذوي المكانة المرموقة بتونس منهم سي احمد بن ضياف وسي الطاهر العجيمي،وهما اللذان عرّفاه بالشيخ الوقور محمد بن عثمان الحشايشي محافظ خزانة جامع الزيتونة » (وحقيقة ان هؤلاء العلماء من أمثل علماء تونس في عهدهم وتركوا آثارا هامة) .

نكتفي بهذا القدر من ترجمة أحد ضحايا الصحراء الذين خصّصهم مواطنوهم بتراجم ضافية تعرضوا فيها لظروف اغتيالاتهم ، والكثير منهم كانوا من معارف وزملاء الاب دوفوكو الذي لم ينج بدوره من السيل العرم الذي اكتسح منطقة الهجار اثر اندلاع ثورة الليبيين على ايطاليا،ثم تسربها الى المناطق الصحراوية التي كانت تحت الحكم الفرنسي ، ولنرجع الى الحديث عن الاب دوفوكو ، الذي طبع بدوره منطقة الهجار بطابع له وزنه وأثره ، بقطع النظر عن آراء الناس في نشاطاته العقائدية الصرفة ، اذ لم يخف رهبانيته على أحد ، عند استيطانه لتمنراست التي لقي فيها حتفه ، كما لم يخف خيبة أمله في التنصير ، وصرح بأن الوقت لم يحن بعد الى ذلك ، حيث ان حصانة سكان الصحراء ، ومناعتهم المكتسبين من التربية الدينية الاسلامية ، جعلت كل محاولة لتحويل عقائدهم ، ترتطم بالفشل الذريع ، اللهم الا أفراد قلائل ، يتصلون بهم ، ويظهرون اعتناقهم للمسيحية رغبا أو رهباء،كما لم يعتنق دوفوكو أفكار من كانوا يدعون ان التوارق يحملون الحقد للاسلام من عهد الفتوحات . هذا وان حياة دوفوكو قتلت بحثا وتنقيبا ، ونشرت ترجمته،تتبعت مراحل حياته من مهدها الى لحدها.كما ان وزارة الشؤون الدينية ، خصصت له ضمن نشاطات المبشرين في الجزائر نقطة من نقاط مواضيع الملتقى السابع للفكر الاسلامي ، المنعقد في مدينة تيزي وزو ، ولهذا اقتصرت في

10) نشرت المجلة الجغرافية لمدينة الجزائر وافريقيا الشمالية بعددها 123 سنة 1930 تحت عنوان ضحايا الصحراء : الماركيز دو موريس ومنها نقلت هذه الترجمة .

مدة الدراسة على الاشارة لبعض الجوانب من حياته بمناسبة انعقاد هذا الملتقى فى منطقة اشتهرت به ، ولا زالت قوافل السواح تشد اليها الرحال ، وبعض نشاطاته فى المجال الثقافى تولى مواصلتها بعض مريديه ، ومن بينها اتمام المعجم الـــذى جمع فيه ترجمات المفردات البربرية ـ لغة التوارق ـ الى الفرنسيـــة والجانـــب الذى ركزت عليه ترجمته هو حياته المثالية فى الميدان البشرى ، حيث تحدى عبيد البطون والشهوات ، عندما تحول من حياة رجل بالغ فى حياة الاستهتار الى منتهاها ، وسهلت عليه بلوغ مرامه فيها ، ثروة أسرته ، فتخلى عنها ، ومال الى الحيـــاة الروحية ، حياة العباد والنسّاك ، وقد تعرض بعض مترجميه ومنهم الصحـافى روبير ، عندما تعرض الى مراحل حياته الاولى وتحوله من حياة البذخ والتـرف الى حياة التقشف والزهد ، ان من جملة الاسباب ، انه فى سنة 1881 عندما أعلن السيد بوعمامة ثورته على الفرنسيين،تلك الثورة التى دعم بها ثورة أقاربه المشهورة فى التاريخ بثورة « أولاد سيدى الشيخ »،صادفه الحال بفرنسا وطلب الالتحاق بجيش المقاومة ، فأرسل الى نواحى سطيف فى قرية كان سكانها المسلمون يترددون على المسجد فى صلواتهم،ويسمعون قراءة القرآن والاذان فرأى ان هذه المظاهـر للحياة الدينية هي الشغل الشاغل لهؤلاء الناس ، وحينئذ صار فى نقده الذاتى يقارن بين حياتهم وحياته ، مما أداه الى التفكير فى تحويل مجرى حياته · والحياة المثالية للمسلمين كان لها تأثير ، كثيرا ما التجأ اليها بعض القسيسين اثر الاحتلال الفرنسى مباشرة ، حيث كانوا يضربون المثل بابتعاد المسلمين عن الحانات والمواخير.

فـــالأمير عبد القادر عند اجتماعه برئيس الكنيسة فى الجزائر دبيش Dupuch وصرح له دبيش بأنهم أهل كتاب ودين ، فتعجب الامير من تصريحه ، وقال لـــه كيف تدعون ان لكم دينا وكتابا سماويا وأنتم تتجاهرون بشـــرب الخمر ··· والاسلام فى هذا الميدان،أي الحياة المثالية التى يدعو اليها،واحترام الاديـــان، والكتب السماوية،لا ينكرها الا المغرضون ، ورغم ذلك فان كثيرا من الباحثين من الاجانب لا زالوا الى يومنا هذا كلما أثير هذا الموضوع وهو تسامح الاســـلام الدينى نجد من يعترف للمسلمين بهذه الحسنة ، ومن ذلك أنه نشر فى جريدة لوموند اليومية الباريسية (Le Monde) مقال لاحد الاساتذة الفرنسيين قضى أزيد مـــن عشر سنوات أستاذا بمعهد فرنسى فى مدينة اصطنبول (تركيا) كتب هـــذا المقال فى الثانى من ماي 1979 ردا على ما كتبه أحد الكتاب الارمينيين بمناسبـة احياء ذكرى قمع الدولة التركية سنة 1915 للارمن ، والذى يهمنا من هذا الرد فى موضوع دراستنا هو ما اعترف فيه كاتبه لمعاملة الخلافة العثمانية باصطنبول

لرعاياها المتدينين بديانات غير اسلامية، وبعد ان استعرض احصائيات رسمية عما كان يتمتع به الارمن طيلة أربعة قرون بتركيا، وكذلك غيرهم من الرعايا المسيحيين واليهود ، قال متحدثا عن الاتراك : « ان جميع المؤرخين متفقون على أن الاتراك مثل منفرد للدول الحاكمة ، فى تسامحها المثالى فى الميدان الدينى ـ وذلك حتى فى عهودها القديمة ـ مع رعاياها غير المسلمين ، ومن ذلك أنهم آووا اليهود الذين طردهم وشردهم الاسبان فى القرن الخامس عشر ، ثم آووا الآخرين سنة 1933 عندما طردهم النازيون الخ » .

وكاتب هذا المقال القيم الجوهرى فى موضوعه والمدعم بالحجج والاحصائيات، هو جان لاروش Jane Laroche والكل يعرف ان الارمن نظموا حملات دعائية وكثيرا ما يتعرض من انتصر الى الاتراك ، أو على الاقل أدى شهادة نزيهة الى الاغتيال .

ولنختم هذه الدراسة بما كنت تعهدت به من أن تاريخ منطقة الهجار لا زال محل عناية الباحثين من مختلف الاجناس، خصوصا العناية بتاريخها القديم الذى يرجع الى حوالى عشرة قرون قبل الميلاد ، فقد نشرت الصحف فى بداية هذه السنة نقلا عن وكالات الاخبار بمدينة لشبونة (البرتغال) تحت عنوان : « هل اكتشف السوفييت جزيرة الاتلانتيد ؟ » هذا السؤال هو الذى طرحته الصحافة البرتغالية بعد التصريحات التى صرح بها فى لشبونة العالم الروسى أندرى اكسينوف Andreï Aksinov عضو المجمع العلمى فى الاتحاد السوفييتى، ان السيد اكسينوف يقود قافلة متركبة من خمسين عالما تقلهم باخرتهم الاكتشافية فيتاز Vitiaz ، وصرح تصريحه هذا عندما وقفت الباخرة بميناء لشبونة ، وقال فى تصريحه: « ان بعض رفقائه أخذوا صورا لبعض آثار من بقايا أسوار ومدارج فى عمق البحر فى النواحى التى يعتقد ـ حسب الاساطير ـ انها كانت توجد فيها « الاتلانتيد » .

ولم تمض الا أسابيع قليلة حتى طالعتنا الصحف بمقال طويل نقلته جريدة الشعب الجزائرية تحت عنوان : « قارة اطلانطيس غرقت فى البحر المتوسط وليس فى المحيط الاطلسى » وقد بسط الكاتب القول فى الموضوع، وذكر ان موقع هذه الجزيرة كان بقبرص ، واستعرض آراء العلماء أصحاب هذا الرأي ابتداء من

افلاطون » الخ . سقت هذين المقالين للاستدلال على اننا لا زلنا بعداء عن مجاراة الباحثين الذين حاولوا أن يفرضوا علينا ان منطقة الهجار هي موقع جزيـــرة الاتلانتيد وكل هذا أيضا ، يزيدنا ايمانا ورسوخا ، بأن كثيرا من الكتاب يرسلون الاقوال على عواهنها ولهذا ينبغى لنا أن لا نجاريهم فى آرائهم ولو خلعوا على أنفسهم ألقابا لا دخل لها فى الموضوع اذ التاريخ وثائق .

هــؤلاء التــوارك الملثمــين

عبد الرحمن الجيــلالى
مؤرخ ـ الجزائر

هم أولئك الذين وقــع بشأنهم اجماع معظم مؤرخى هذا الشمال الافريقى بأنهم منحدرون من سلالة الجــذر المازيغى المغربى الذى سكن اسلافه ـ منذ احقاب طوال ـ هذا الوطن الممتد من صحراء ليبيا الى المحيط الاطلسى ، ومــن البحــر الابيض المتوسط الى حــوض السينيغال والنيجر ، فهم الذين عرفوا باسم البربر واشتهروا بــه فى التاريخ ·

وكان فيما اجمع عليه هؤلاء المؤرخون أيضا ان أصل البربر يرجع الى جذمين اثنين ، هما البرانس والبتر ، ومن البرانس انحدرت قبيلة صنهاجة العتيدة · ويقال ان اسمها هذا ـ صنهاجة ، أخذ من كلمة (صناك) بالصاد المشم بالزاى،والكاف القريبة المخرج من الجيم (زناك) · وفى لهجة بربرية ينطق بهما (ايصناكى) و (ايزناكى) ، وفى حال اطلاقها على القبيلة يقال فيها (الزناكة) ، فلما عربه العرب قالوا (صنهاج)،، وهــو اسم الجد الاعلى الذى عرف به هذا الشعب : صنهاج بن برنس ··· ولا تــزال بعض

القبائل والعشائر المنبثة هنا وهناك بأرض المغرب هذه تدعى بهذا الاسم : (صنهاجة) الذى يطلق على اسم البطن الجامع الذى تنتمى اليه كل قبائله وبطونه ٠

وليس من غرضنا هنا تتبع ولا استقصاء ما قيل عن أصل هذا الشعب أو ما ذكروه عن مرجع جذره وأرومته ، ٠٠٠ هل هو عربى أم بربرى أم غير ذلك ٠٠ وهل هو سامى أم حامى ، أو هو من أصل هندى أو روبى ، أو هو مزيج من كلتا السلالتين أو السلالات الثلاث التقت هنا على اديم أرض هذه الاوطان المغربية من هذا الشمال الافريقى ، أو غير ذلك مما قيل ٠٠٠ فان هذا كله لم يكن مما نرمى اليه فى هذه العجالة الموجزة ، اذ أن لهذا البحث مجالات فسيحة وفسيحة جدا ، يتيه فيها الباحث الحاذق والدليل الخريت ، والى هذا الخلاف الواسع الواقع فى نسب هذا الشعب يشير الشاعر الاندلسى ابن خفاجة بقوله فى مدح الامير أبى يحيى ابراهيم :

تنميهم الدنيا الى صنهاجة والدين ينميهم الى الانصار
شادت يد العلياء فى عرصاتهم أعلى منار فى أعز ديار

فتاريخهم كما نرى عريق جدا فى غضون السلالات البشرية العديدة ، وكل هذا كما ذكرنا لا يهمنا منه اليوم شىء ، وحسبنا ان صنهاجة هى قبيلة مغربية منتشرة بأرض المغارب الثلاث : الاقصى ، والادنى ، وفى القلب وهى (الجزائر) أرض المغرب الاوسط . وكان من أهم القبائل والبطون المنحدرة من الجذر الصنهاجى قبيلة (لمتونة) فى الشمال و (قدالة) فى الجنوب بالقرب من نهر السينيغال ، و (مسوفة) فى الوسط ، وهؤلاء هم الملثمون ، ومنهم ملوك دولة المرابطين بالمغرب الاسلامى والاندلس (454 ـ 541 هـ 1062 ـ 1146 م) ٠

وقد اختص الملثمون بسكنى الصحراء الكبرى الممتدة من غدامس بليبيا الى البحر المحيط وبلاد السودان التى كان من ضمنها أرض الجزائر ٠ وعندما ذكر ابن خلدون أرض مالى قال : « وبالقرب منها من شماليها بلاد لمتونة وسائر طوائف الملثمين » ٠٠٠ وفى حديثه عن سجلماسة قال : « ٠٠٠ وفيها مجالات الملثمين من صنهاجة ، وهم شعوب كثيرة ، ما بين كزولة ، ولمتونة ، ومسراتة ، ولمطة ، وريكة ٠٠٠ » ٠

ويقول البكرى : « وبنى لمتونة ضواعن رحالة فى الصحراء مراحلهم فيه مسيرة شهرين فى شهرين ما بين بلاد السودان وبلاد الاسلام ويصيفون فى موضع يسمى أمطلوس ... » .

ولمتونة هى من كبريات قبائل الملثمين بالصحراء الكبرى ، وهم الذين يسميهم الكتاب الاوروبيون : الرعاة الكبار أو الجمالين الرحالة الكبار،وذلك تمييزا لهم عن الرعاة الصغار رعاة البقر والغنم . وكانت لهم الرئاسة بهذه الاوطان الصحراوية ، واستوثق لهم ملك ضخم فى الاسلام (أواسط القرن الخامس الهجرى ـ النصف الاول من القرن الحادى عشر الميلادى) توارثه منهم ملوك ورؤساء مذكورون دوخوا البلاد الصحراوية وما يجاورها من بلاد السودان وحملوا أهلها على الاسلام ، قال ابن أبى زرع :

« أول من ملك الصحراء من لمتونة (تيلوتان) فدوخ بلاد الصحراء واقتضى مغارم السودان ، وكان يركب فى مائة ألف نجيب ، وتوفى سنة 222 هـ/836 م ».وكان الرئيس الاعلى عندهم يدعى بلقب (آمنوقال) أو (امينوقالين) بمعنى أمير البلاد ، واستمر هذا اللقب يدعى به الحاكم المطلق الاعلى عندهم الى سنة 1060 هـ/1650 م . حيث تطورت الاحوال السياسية وتغيرت الظروف ...

ومن بين القبائل التى عمها الاسلام فى تلك المنطقة الصحراوية . قبيلة (تاركة) أو (تريجة) بجيم أو قاف معقودة كما ينطق بها أهل البادية عندنا بارض الجزائر (1) ويأتى الانتساب الى هذه القبيلة على صيغة (تاركى) والجمع تواركة و (توارك) وتأول بعضهم اسم التوارك الى انهم تركوا الوثنية الى الاسلام ، وقيل العكس ، وذلك عند أول عهدهم بالاسلام،والاسم الاخير هذا التوارك ، هو الذى حرفه بعض تراجمة المشرق فقالوا (طوارق) . وهم القبائل الملثمون الساكنون ببلادهم التى سماها لنا ابن خلدون (هكارة) وهى المعروفة اليوم باسم (الهكار) بالجيم أو الكاف المنطوق بها قافا معقودة . ويقول ابن خلدون فى أصل هذه الكلمة انها منقلبة عن (هوارة) قلبت العجمة واوها كافا .

(1) راجع بحثنا حول حرف القاف المعقودة المنشور بمجلة الشهاب . م 7 . ج 7 ص 446 قسنطينة 1350 هـ/1931 م .

وجاء فى وصف حال هؤلاء الملثمين وموقع بلادهم من كلام ابن خلدون قوله :

« وهذه الطبقة من صنهاجة هم الملثمون الموطنون بالقفز وراء الرمال الصحراوية بالجنوب ، أبعدوا فى المجالات هناك منذ دهور قبل الفتح لا يعرف أولها فاصحروا على الارياف ووجدوا بها المراد وهجروا التلول وجفوها واعتصموا منها بالبان الانعام ولحومها انتباذا عن العمران . واستئناسا بالانفراد وتوحشا بالعز عن الغلبة والقهر فنزلوا من ريف الحبشة جوارا وصاروا ما بين بلاد البربر وبلاد السودان حجزا واتخذوا اللثام خطاما تميزوا بشعاره بين الامم » .

ويبدو لنا من فحوى كلام ابن خلدون هذا ان نزول هؤلاء الملثمين بهذه المغازات الصحراوية الجنوبية انما كان بدافع الفرار من العدو المهاجم فى الشمال ، وخوفا من الهزيمة على أيدى هؤلاء الزاحفين من الاجانب على الساحل الشمالى من أرض افريقيا ؟ ولكنا نحن اذا نظرنا الى الطباع التى فطر عليها هؤلاء الملثمون وذكروا بها فى التاريخ وشوهدوا عليها فى العصر الحديث كدنا ان لا نصدق بهذه النظرية ! ؟ . فها هو العالم ابن حوقل ، وهو ذلك التاجر الرحالة الذى لابسهم وعرفهم قبل ابن خلدون بخمسة قرون يصفهم لنا بقوله : « فيهم البسالة والجرأة والفروسية على الابل والخفة والجرى والشدة ... » ويقول بأن فيهم من الجلد والقوة ما ليس لغيرهم ... ويقول : ولهم خلق تام وحول وجلد عام فى نسائهم وفى رجالهم ...

كما يشهد لهم التاريخ الحاضر بالبطولة النادرة فى حروبهم الثورية المتتابعة المتكررة ضد الاستعمار الفرنسى (1881 ، 1889 ، 1895 ، 1896 ، 1917 م) فواجهوا المدافع والاسلحة العصرية بأسلحتهم التقليدية والتي هي من صنع أيديهم مثل الرماح والحراب والسيوف الطويلة والخناجر القصيرة ، وحموا أنفسهم بدروع من جلود الضباء ولم يفروا أو يتقهقروا أمام العدو قيد انملة عن موطنهم هذا ، وظلوا كذلك الي عهدنا هذا عهد التحرير ، فهم بحق كما وصفهم الواصفون : أسود الصحراء ، فكيف يتصور ممن هذا شأنه وهذه سجاياه يفر أو يرتحل عن بلاده ويتركها للعدو الزاحف ؟

ولكننا نقول انهم سكنوا بهذه الارض منذ عهد بعيد قبل الغزو الاجنبى بعصور مديدة عريقة وموغلة فى القدم بما يرجع ربما الى ما قبل التاريخ بدهور ...

وبلاد (الهكار ، أو الهجار) بالقاف المعقودة هى نجد كثير الارتفاع يقع فى أرض الجنوب بصحراء الجزائر ما بين درجة 14 و 30 عرضا شمالا ، وبين 5 غربا و 10 شرقا طولا ، بها جبال هائلة تظهر قممها الرهيبة بأشكال مخيفة غريبة يرتفع بعضها الى 3000 مترا كقمة (طهت) بمرتفعات (تاكور) الى الشمال من مدينة (تامنراست) ، وهى فى شكلها الطبيعى تظهر ماثلة كقلاع منيعة شاهقة لا يمكن اختراقها ٠ كانت فيما مضى منطقة فلقانية ، وطول البلاد يبلغ 480 كيلومترا تقريبا ، وعرضها 320 كيلومترا ، وهذا المبلغ من مساحتها اليوم هو ما كان عليه الحال منذ أيام ابن خلدون حيث نراه هو نفسه يقول : « ٠٠٠ ومضى هؤلاء الملثمون وقبائلهم لهذا العهد بمجالاتهم من جوار السودان حجزا بينهم وبين الرمال التى هى تخوم بلاد البربر من المغربين وافريقية ، وهم لهذا العهد متصلون من ساحل البحر المحيط فى المغرب الى ساحل النيل بالمشرق » ٠

والواقع ان الاغلب من هذه المنطقة الصحراوية لم يسبق اكتشافه حتى اليوم ، اللهم الا بواسطة رجال اطلعوا على هذه الجهة من طائرات تمر فوقها ٠

ومناخ بلاد الهجار ـ الهكار جاف كثيف الحرارة ، حيث الارض هناك حرة لا تنبت زرعا كما قال ابن خلدون ولا عشبا بالجملة ، فهى كارض الحجاز وجنوب اليمن ٠٠٠ قال: «ومثل الملثمين من صنهاجة الساكنين بصحراء المغرب وأطراف الرمال فيما بين البربر والسودان فان هؤلاء يفقدون الحبوب والادم جملة ، وانما غذاؤهم وأقواتهم الالبان واللحوم ٠٠٠ » وهذا فى القديم ، اما اليوم فلا يوجد تارقى الا ويستعمل الحبوب والتمور بل ان بعض الزرع بدأت فعلا بزراعة بعض المحاصيل فى مجارى المياه فى الوديان هناك جماعات تستخدم الرى فى الزراعة ٠

وتنزل بهذه الارض امطار ينمو بها النبات الذى يفى بحاجة السكان وتجرى به انهار وأودية أهمها نهر (ايغيغار) ووادى (طاغيت) ووادى (تافساست) ٠

واهم قرى هذه الناحية هى (تمنغست) ـ تامنراست عاصمة ولاية المنطقة وادارة الحكم بتلك السهوب التى يسكنها هؤلاء التوارك الملثمين اليوم ، لا سيما منهم فريق

(ايموشاغ) أو (ايموشاق) ، كما هم منتشرون أيضا فى النيجر وغينيا ونيجيريا وتشـــاد ٠

وسبق لنا ان أوردنا رأى ابن خلدون فى أصل تسمية هذه المنطقة باسم (الهجار) أو بلاد (الهكار) حيث قال : ان أصلها (هوارة) قلبت العجمة واوه كافا ٠٠٠ ولنا فى ذلك رأى ولا ندرى اسبقنا اليه غيرنا من الباحثين ام لا ؟ ٠٠٠ وقد حان الوقت لندلى به تاركين القول الفصل فيه للبحث العلمى والنقد المنهجى الصحيح ٠

فانى أرى من الجار القريب والمحتمل لفظا ومعنى ان المنقلب من الحروف فى كلمة (الهكار) أو (الهجار) هو حرف الهاء لا الواو ولا الكاف كما قال ابن خلدون ، فنقول ان اصلها (حجار) وهى الاحجار، فالهاء منقلبة أو مقلوبة عن حرف الحاء ، وذلك نظرا الى وضعية هذه الناحية من كثافة جبالها الحجرية وعظمة صخورها الضخمة ومرتفعاتها من الحجارة الصلبة والادوات المصنوعة هناك من الحجارة، أو من قولهم (الحجار) بتشديد الجيم، وهو قاطع الحجارة، فسميت المنطقة هذه أولا بالحجار ، ثم غيرتها الالسن وحولتها الى قولهم الهجار ـ الهكـار ـ الهقـار بقاف معقـدة أليس هذا بممكن قريب ومعقول ؟٠٠ لا سيما وان باب القلب والابدال هو باب واسع فى اللغـة ومعروف ٠٠٠ فانهم قالوا فى كلمة (مدحه) مدهه ، ومدهته امدهه مدها، يعنى مدحته أمدحه مدحا ٠ كما يقال فى كدحه : كدهه ، وفى حبش : هبش ، فانه قلما نجد حرفا الا وقد جاء فيه البدل ولو نادرا كما قال أبو الحسن ابن الضائع اللغوى الاندلسى المشهـــور ٠

وكذلك اذا نظرنا الى موقع هذه البلاد وحاجة أهلها الى المرافق الاساسية فى حياتهم اليومية المتكررة ، نرى أهم ما يعول عليه هؤلاء الملثمين من التوارك سواء ذلك فى ضعنهم واقامتهم وفى أسفارهم وحال تنقلاتهم ، وفى طعامهم وأغذيتهم، وفى ملابسهم ومساكنهم وخيامهم وما الى ذلك من حال معاشهم، فكل ذلك مرجعه عندهم الى البعير ، نعم البعير الذى هو سفينة الصحراء ، فهو أكثر استعمالا وانتشارا بينهم من بين غيره من بقية سائر الحيوان الداجن أو غيره، فالجمل هو الصحراء ، والصحراء هى الجمل ، فهم حقا الرعاة الكبار ٠ ونرى الجمل اذا خلى عنه صاحبه أو تركه للمرعى أو تغافل عنه لحاجته

أو استغنى عنه في وقت ما ، ربما نفر البعير أو ند وسار فى أرض الله يبتغى الكلأ والمرعى ، فكان لزاما على صاحبه ان يعقله ويشده بحبل ، أو تدرى أيها القارىء الكريم كيف يسمى هذا العقال أو الحبل الذى يعقل به البعير ؟ ان لهذا الحبل اسما خاصا يتميز به ما بين الحبال ، ذلك هو ما يسميه العرب « الهجار » بكسر الهاء وحينئذ تكون الهاء هنا أصلية ، والهجار هو حبل يشد فى رسغ رجل البعير ثم يشد الى حقـوه ، وان كان موصولا شد الى الحقب ويقصر ليلا يقدر البعير على العدو ، فيقال اذا شد بعيره بالهجار ، ويقال للجمل المشدود بهذا الهجار : (المهجور) كما يسمى الحبل الـذى يجعل فى عنق البعير المثنى فى خطمه بالهجار أيضا · وشبه الداخل الى هذا الموضع الهجـــار بالبعير الذى فعل بـــه ذلك ثم غلـــب على اسم الموضع ، ويقال حجر البعير ـ بتشديد الجيم ـ اذا وسم حول عينيه بميسم مستدير · كما استعملت العرب هـذه المادة نفسها لاطلاقها على الناقة اذا شبت شبابا حسنا فتقول فيها : أهجرت الناقة وناقة هاجرة ومهجرة أى اذا فاقت غيرها فى الشحم والسير ، والهجر ـ بكسر الهاء ـ للفائق والفائقة من النوق والجمال ، والهجير ما يبس من الحمض وهو ما ملح وأمر من النبات وهى كفاكهة الابل ··· وبما أن أكثر مـا يشاهد فى الصحراء الكبرى ومـا يستعمل فيها من الحيوان هو البعير وما يتصل بالبعير سمى هذا الوطن ببلد (الهجار) ؟

وكذلك مما يحتمله لفظ (الهجار) من المعانى ـ ودائما مـع مراعاة المكان هذا هو مـا هي عليه تلك الناحية الصحراوية من اشتداد الحـر،ووقدات القيظ لا سيما فى فصل الصيف حيث تبلغ درجة الحرارة بها فى الشمال : 50 درجة مائوية ، وفى حالة التوسط : ما بين 35 و 36 درجة ، ومنطقة (الهجار) معروفة بهذا وموصوفة بـــه من قديم ·

وفى اللغة يقال : هجر النهار ـ بتشديد الجيم ـ اذا اشتد حره ، والهاجرة والهجير شدة الحر ، وتطلق هذه الكلمة على نصف النهار فى القيض خاصة عند زوال الشمس ، ويقال له وقت الهجر ـ بفتح الهاء ـ وأهجر القوم وتهجروا اذا ساروا فى الهاجرة ، وأهجروا اذا دخلوا فى وقت الهاجرة : ومنها جاء تعبير العامة عن شدة الحر بقولهم

(الهقارة) بالقاف المعقودة ، وكأن هذه الناحية شبهت لشدة حرها بالهاجرة ، وكل هذه المعانى موجودة فى الصحراء موطن التوارك الملثمين ·

أو يكون ذلك راجع فى الاشتقاق الى أصل المادة نفسها وهو الهجـــرة بمعناها المعروف وهو التنقل والترحل والخروج من أرض الى أرض ومن مكان الى مكان آخر ، وهذا مقبول اذا اعتبرنا ما هو عليه حال هؤلاء التوارك من الرحلة المستمرة المفعولة التى أكسبتهم صفة (الرحل) ، وحينئذ نضطر الى اعتقاد القول بالرأى الذى قيل عنهم وانهم من المهاجرين الاولين الذين استوطنوا هذه المنطقة الصحراوية فنزلوا بها وسكنوها منذ عصور فسميت بلادهم هذه (بلد الهجار) أى المهاجرين على غير قياس ، كما تستعمل كلمة الهجر فى كل محل تسكنه وتنتقل عنه ، فيجوز أن يكون أصلـه الهجران كأنهم هجروا ديارهم وانتقلوا عنها الى هذه المنطقة ، أو من قولهم (هجر القوم) ـ بتشديد الجيم ـ بمعنى بكروا وبادروا الى كل شيء ··· ولا يخفى انما تحسن الرحلة فى بلاد الصحراء وفى أرضها القاحلة فى وقت البكور قبل الشروق اتقاء للحر واللهيب ، وذلك ما جعل المكان هذا يعرف بالهكار ـ الهجار ·

كما انه لنا ان نرد هذه التسمية الى ما ورد من اسماء البلاد العربية التى جـــاء اسمها مشتقا من هذه المادة : هـ· ج· ر· فمثلا ذلك البلد المشهور باليمن (هجر) ، و (الهجران) [illegible]ـح الهاء والجيم ، وهما قريتان متقاربتان فى رأس جبل حصين قـــرب حضرموت ، ولفظ (الهجر) نفسه هو فى لغة حمير والعرب العاربة معناه القرية كما هو فى لغة اليمن أيضا ، فكل ذلك قريب ، فان صح هذا كان تسمية بلاد التوارك الملثمين بالهجار تسمية عربية أصيلة ، وكانت نسبة الملثمين الى العرب صحيحة ، ولكن من أى طبقة هم من طبقات العرب الثلاث ؟ ··· أهم من العرب البائدة ؟ ··· أم هم من العرب العاربة ؟ ··· أم هم من العرب المستعربة ؟ ··· ذلك ما يرجـــع البحث فيه الى المختصين بدراسة التاريخ القديم المتعمقين فى البحث عـــن تاريـــخ السلالات البشرية فى العالم ·

واذا التفتنا الى ما نريد ان نعرفه عن الحضارة والمدنية بهذه المنطقة من الصحراء الكبرى فاننا نجد أمامنا لونا من ألوان الحضارة متجليا فيما اكتشفه علماء الآثار فى

عصرنا الحديث هذا من آثار قيّمة تعتبر وثائق تاريخية تكفى للتدليل على حضارة هذا الشعب وتفننه ، ومن ذلك ما ظهر للباحثين بناحية (تاسيلى) شمال شرقي الهقار واطلع عليه الجمهور ، من تلك الرسوم والصور العجيبة المنقوشة على الصخور هناك ، وهى ذات أشكال مختلفة،وألوان زاهية،وتخطيط محكم،فى وضع أنيق وصنع عجيب ، يرجع تاريخها الى نحو ما يقرب من 8000 سنة مضت على هذه التحفة أو التحف الفنية، وهى لا تزال الى يومنا هذا مزهوة بألوانها البراقة ومظهرها الخلاب ، وذلك رغم مر الدهور وتطاول عوارض الطبيعة عليها وعمل يد البشر بتصرفها فيها كيف شاءت !.. ورغم هذا كله فهى باقية الى الآن . ولقد نشرنا صورا شمسية منها فى كتابنا (تاريخ الجزائر العام) ج 1 . ص 62 ـ 63 . ط 3 الجزائر 1971 .

وفى مجال التصنيع نجد هؤلاء الملثمين اشتهروا بامتيازهم فى صنع الدرق لرد عادية العدو فى الحرب ، ولا سيما منها (الدرق اللمطية) الذائعة الصيت،والتى يضرب بها المثل فى المتانة والصلابة والجودة وحسن الصنع ، وهى منسوبة الى لمطة ، ولمطة هى من احدى قبائل الملثمين ، كانوا يتخذون جلود الوحوش بعد ما ينقعونها فى اللبن والحليب سنة كاملة لتزيد قوة وقساوة ، فيصنعون منها درقا بحيث اذا ضربت بالسيف الحاد القاطع نبا عنها ولا يؤثر فيها . وقد كانت الدرقة فى صدر الاسلام الاول تصنع من الخشب ثم يلصق عليها جلدة مساوية لها .

اما لغة القبيل هذا فهى المعروفة ما بين لهجات البربر بلغة (تماشغت) أو (تمازغت) أو (طماشق) وهى تقرب من لهجة قدماء المصريين التى لا تزال منطوقا بها فى بلاد النوبة (1) . وهى مستعملة هنالك فى بعض الكنائس القبطية بمصر ، وترجع فى اشتقاقها وتركيبها الى اللغة الحامية القديمة التى تمت بصلة الى اللغة السامية ، ويتحدث بها فى شمال السينيغال كما تتحدث بها فئتا كيل ايوليمدين وكيل أهجار ، وكلتاهما من التوارك .

كما ان لمحادثاتهم بينهم لهجات أربعا هى خاصة بهم يصعب على غيرهم النطق بها ، حتى ان الكاتب الرومانى القديم (فلينوس) قال فى حديثه عن لغة البربر عموما : « يتعذر على حناجر غير البربر ان تستطيع النطق بأسماء قبائلهم ومدنهم » .

(1) منطقة ممتدة على شاطىء النيل جنوب اسوان حتى دنقلة بأرض السودان .



27

وكان لهؤلاء الملثمين ابجدية قديمة جدا وهى خاصة بهم ، يكتبونها بحروف منفصلة صائتة بعضها مستنبط من الحرف الحميرى والخط المصرى القديم ، وهو ما يعرف بالخط اللوبى ، وبعضها استنبطوه من تلقاء أنفسهم ٠

وأشكال هذه الحروف يختلف باختلاف القبائل وهى فى جملتها متقاربـــة فى الشكل ومتشابهة فى الصورة ، ولا يزال هذا الخط موجودا الى يومنا هذا منقوشـا على بعض الآثار العتيقة القائمة على مشاهد قبور وصخور يوجد بعضها بشرق قسنطينة وبغيرها ٠ كما توجد بعض نماذج منه بمتاحف عواصم القطر الجزائرى وهو ما يسمى بخط (تيفيناغ) أو (تافيناغ) ٠

ولهذا الخط ضوابط يسمونها (تيدباكين) والكل يسمى (أقامك) ٠ ويمكن كتابة هذا الخط من اليمين الى اليسار ومـن اليسار الى اليمين ، ومن أعـلى الى أسفل ومـن اسفل الى أعلى ، وقد خصصنا لهذا الخط فى كتابنا (تاريخ الجزائر العام) ج 1 ٠ ص 55 ط أولى الجزائر 1953 م ، وفى ط ثانية ج 1 ٠ ص 62 بيروت 1965 م ، وفى طبعة ثالثة ج 1 ٠ ص 61 الجزائر 1971 م ، جدولا مقارنا بثلاثة خطوط : تيفيناغ ، فينيقى ، عربى ٠ فانظره هناك ٠

وكان تعليم القراءة والكتابة والشعر والموسيقى عند التوارك هو من مواهـــب النساء ، فهن اللائى كن يشتغلن بتعليم ابنائهن وبناتهن ٠ وهذا يـرجع الى مـا تتمتع به المرأة التاركية من المقام الرفيع والمكانة الراسخة فى المجتمع التاركي ٠

وهذا وحده مظهر عظيم وشاهد ناطق بتقدم سكان هذه المنطقـــة الصحراويـة الجزائرية وضربها بسهم صائب فى ميدان الرقى والحضارة التى نراها تقارب حضارة وادى النيل العتيقـــة ٠

ومما يحتفظ به هؤلاء التوارك كميزة خاصة يمتازون بها بين ما يجاورهم مــن البربر انقسامهم على أنفسهم الى قسمين اثنين ، أو نقول الى جماعتين كبيرتين : توارك الشمال ، وتوارك الجنوب ، يجتمعون فى ثمان فرق ، فتوارك الشمال هم المعروفون باسم (أزجر تاسيلى) Tassili والهجار الذين يقطنون الجبال المعروفة بنفس هذا الاسم ٠

وتوارك الجنوب وهم (ايو لميدن كل دناك) وهؤلاء امتزجوا بعناصر من السودان ، وعددهم جميعا يبلغ نحو 300.000 نسمة (1950 م) وطبقة السادة فيهم تـدعى (ايهقارن) وطبقة الشعب تسمى (ايمراد) ، ولا يزالون كلهم محتفظين فى سلوكهم العام بأساليب حياتهم التقليدية وعوائدهم الموروثة مهما اختلفت عن تلك التقاليد التى هى عليها غيرهم من قبائل البربر فرحا وترحا ، فهم على سبيل العموم منزوون عن المجتمع لا يخالطون ولا يختلطون ، وحتى فى زيهم وملابسهم فيهم شذوذ ٠

ومن تقاليدهم المشهورة والخاصة بهم ما يستعمله الذكور من اللثام المسمى عندهم بـ (تاقيلموس) الذى هو فى نفس الوقت يشمل اللثام والعمامة ولهم فى وضعه كيفية خاصة،وفي طوله وعرضه مقياس خاص ٠ فهو ادارة دور من العمامة يصعد بـه المتعمم من تحت الذقن فيجعله على فمه ، أو يصعد به الى أصل الفم وهو النقاب ، وقد يبلغ به أحيانا الى أن لا يظهر منه الا العينان ، وذلك هو ما يسمى بالاحتجـار أو (العجار) كما هو معروف فى لغة عامة أهل مدينة الجزائر ٠

وهذا اللثام بهذه الصفة لا يتزيا به الا طبقة النبلاء منهم،فلا يستعمله العبيد ولا الخدم ، وان كان قد تم القضاء على الرق فيما بينهم بصفة رسمية نتيجة لثورتهم سنة 1916 ـ 1917 م ٠ فيغطون به وجوههم من أسفل العينين وحتى الجبهة والانف ولا يترك اللثام الا جزءا ضيقا جدا للعينين وقسما صغيرا للانف هى كل الاجـزاء الوحيدة التى يمكن ان يراها الانسان من وجه التاركى ، وتترك نوعية القماش وطريقة نسجه وخياطته مجالا واسعا للتنفس ، بل وتحتفظ بدرجة كبيرة من الشفافية ٠ وهم يتخذونه بلون ثيابهم الطويلة ذات اللون الازرق القاتم ٠ وفى منطقة (الايار) لا يشرع التاركى فى وضع اللثام ولبسه الا اذا بلغ الخامسة والعشرين من عمره ، فعندئذ تقام احتفالات طقوسية لوضع اللثام أول مرة ، وتصحبها وليمة كبرى يقدم فيها الطعام والغناء والرقص ٠ وهم يقولون لا يصبح الرجل طاهرا وتقيا الا اذا لبس اللثام ٠

ولا يسمح التاركى اطلاقا لاحد بالاطلاع على وجهه بتاتا،وحتى لاهله واقـرب اصدقائه ولو هو مستقر فى بيته أو قيامه مع اقربائه وذويه ، لا ينزعه ليل نهار حتى

في المنام ، وحتى فى اثناء تناوله للطعام ، فعند ذلك يرفع التاركى القسم الاسفل من اللثام الذى يسمى (ايماوال) ليأكل برفع يده الى فمه ، ثم اذا احتاج فيما بعد الى ربط اللثام فانه ينتحى جانبا فى دغل من الادغال ليخفى ملامح وجهه حتى على أفراد أسرته ٠ وهم يتعرفون على بعضهم بعض بسهولة ، قال ابن حوقل :

« ولم ير لاحدهم ولا لصنهاجة منذ كانت من وجوههم غير عيونهم ، وذلك انهم يتلثمون وهم أطفال وينشئون على ذلك » ٠ ومن هنا جاءت تسميتهم بالملثمين تسمية منطبقة عليهم تماما ، فهى تسمية طبيعية ٠

وهذا شيء نراه يخالف على طول الخط تقاليد الامم والشعوب على اختلاف أجناسها واديانها وتباين اذواقها ومشاربها ، فما رأينا ـ فيما نعلم ان هناك من ذكر ان في الشعوب من يتزيا بهذا الزى الا هؤلاء ، فياترى ما وجه ذلك ؟٠٠ وما هو السبب الحامل لهم على تغطية وجوههم على هذه الصفة ؟ ٠٠ وما الباعث لهم على هذا ؟ ٠٠ واذا قلنا حملهم على ذلك اتقاء مهاب الرياح والزوابع الرملية التى لا تخلو منها الصحراء ، قلنا فكيف بالجنس اللطيف عندهم لا يستعمله ، فكيف بحالهن اذا اشتدت زوابع الرمال وتصاعدت الحرارة واضطربت الرياح ؟ ! ٠٠٠ فهن دائما سوافر لا يتلثمن ولا يتنقبن أصلا ، فما هو السبب والعلة فى ذلك ياترى ؟ ٠٠ هذا هو السؤال الذى نطرحه اليوم على شيخنا التاريخ ليوضح لنا ذلك ويكشف لنا عن السر فيه ، قال ابن الاثير فى استمرارية حديثه عن ولاية يوسف بن تاشفين أمير دولة المرابطين (454 ـ 541 هـ/1062 ـ 1146 م) :

« ٠٠٠ وخرجت قبيلة لمتونة ـ أى بعد تمهيد مراكش ، وضيقوا حينئذ لثامهم ، وكانوا قبل ان يملكوا يتلثمون في الصحراء من الحر والبرد كما يفعل العرب ، والغالب على الوانهم السمرة ، فلما ملكوا البلاد ضيقوا اللثام ٠

« وقيل كان سبب اللثام لهم ان طائفة من لمتونة خرجوا مغيرين على عدوهم فخالفهم العدو الى بيوتهم ولم يكن بها الا المشائخ والصبيان والنساء ، فلما تحقق المشائخ انه العدو أمروا النساء ان يلبسن ثياب الرجال ويتلثمن ، ويضيقنه ، حتى لا يعرفن،ويلبسن

السلاح . ففعلن ذلك ، وتقدم المشائخ والصبيان أمامهم واستدار النساء بالبيوت فلما اشرف العدو رأى جمعا عظيما فظنه رجالا ، فقال : هؤلاء عند حرمهم يقاتلون عنهن قتال الموت ، والرأى ان نسوق النعم ونمضى ، فان اتبعونا قاتلناهم خارجا عن حريمهم ، فبينما هم فى النعم من المرعى اذ أقبل رجال الحى فبقى العدو بينهم وبين النساء ، فقتلوا من العدو فاكثروا ، وكان من قتل النساء أكثر ، فمن ذلك الوقت جعلوا اللثام سنة يلازمونه ، فلا يعرف الشيخ من الشاب ، فلا يزيلونه ليلا ولا نهارا . ومما قيل فى اللثام :

قوم لهم درك العلى فى حمير وان انتموا صنهاجة فهم هم
لما حووا احراز كل فضيلة غلب الحياء عليهم فتلثموا

وهكذا نرى تلميذه ابن خلكان يروى لنا القصة بعينها فى تاريخه وفيات الاعيان، مع التعليق عليها بشىء من التوضيح والشرح فيقول وهو فى سياق فى حديثه عن دولة المرابطين :

« ... وهم قوم يتلثمون ولا يكشفون وجوههم ، فلذلك سموهم الملثمين ، وذلك سنة لهم يتوارثونها خلفا عن سلف ، وسبب ذلك على ما قيل : ان حمير كانت تتلثم لشدة الحر والبرد . تفعله الخواص منهم ، فكثر ذلك حتى صار تفعله عامتهم ، وقيل ان سببه ان قوما من اعدائهم كانوا يقصدون غفلتهم اذا غابوا س بيوتهم فيطرقون الحى فيأخذون المال والحريم ، فأشار عليهم بعض مشائخهم ان يبعثوا النساء فى زى الرجال الى ناحية ويقعدوا هم فى البيوت ملثمين فى زى النساء ، فاذا أتاهم العدو وظنوهم النساء فيخرجون عليهم ، ففعلوا ذلك وثاروا عليهم بالسيوف فقتلوهم ، فلزموا اللثام تبركا بما حصل لهم من الظفر بالعدو » . وهكذا استمر العمل عندهم حتى أصبح اللثام لديهم (موضة) La mode أو عادة غير شعورية .

اما ابن خلدون فانه اقتصر فى تفسيره لهذه الظاهرة عند التوارك بانهم : « اتخذوا اللثام خطاما تميزوا بشعاره بين الامم » . ومثله فعل القلقشندى فى صبحه اذ قال : « واتخذوا اللثام شعارا يميز بينهم وبين غيرهم من الامم »

اما ابن حوقل فانـه جاءنا بتعليل آخر غريب يخالف تماما مـا رواه ابن الاثـير وابن خلكان ، بل نقول فاجأنا بشيء لم يخطر لنا على بال ... فانه يقول : « ... ولم ير لاحدهم ولا لصنهاجة منذ كانت من وجوههم غير عيونهم ، وذلك لانهم يتلثمون وهم أطفال وينشؤون على ذلك ، ويزعمون ان الفم سوأة تستحق الستر كالعورة لما يخرج منه اذ ما يخرج عندهم هو انتن مما يخرج من العورة » . وكذلك نجد هذا التعليل نفسه عند شيخ الربوة في نخبة الدهر ...

ويرد ذلك بعضهم الى انه يستعمل وقاية سحرية لدرء العين وغيرها مما يتقى شره ، وهناك من يزعم من كتاب الغرب أن ذلك يرجع الى مـا يكمن في صدور التوارك وفي قرارة أنفسهم من نزعة ارستقراطية عريقة فيهم منذ قديم، ومهما يكن مـن شيء فان اللثام هو النمط الحضارى الذى يميز التوارك عن غيرهم .

ولقد تعرض الفقهاء الى هذا اللثام ومثله النقاب من حيث التزين به في حالـة الصلاة ، وحتى في خارج الصلاة أيضا ، فقالوا في النقاب هو بالنسبة للمرأة في حالة الصلاة مكروه ، ولا سيما اذا كان يبلغ للعيون ، لانه كما قالوا : هو من الغلو في الدين . ولكنهم نراهم قد تسامحوا مع الرجل اذا كان هو من قوم عادتهم ذلك ، وذكروا أهل (مسوقة) فقالوا بما أن النقاب من دأبهم ومن عادتهم لا يتركونه أصلا ، فلا يكره لهم الانتقاب اذا كان في غير صلاة ، وأما فيها فيكره وان اعتيد استعماله خارج الصلاة ، وشددوا في اللثام وهو ما يصل لآخر الشفة السفلى فقالوا بكراهته للرجل مطلقا في الصلاة وخارجها .

وعلى ذكر اللثام هذا نسوق قصة حدثت زمن نـزول جيوش الملثمين ببجايـة (581 هـ/1185 م) بقيادة على بن غانية ، وكان قاضيها في التاريخ الشيخ أبـو عـلى المسيلى ، فاكرهه أمير الجيش ابن غانية هو ومن كان حاضرا معه من أهل بجاية على البيعة،فتوقف القاضى ولم يبايع ، ذلك لما كان في عنقه من مبايعة الموحدين ... فاكرهه ابن غانية على مبايعته . فقال القاضى : نحن لا نبايع من لا نعرف هل رجل أم امرأة ؟.. وحينئذ سفر ابن غانية عن وجهه وكشف نقابه للحاضرين . وهنا يقول الغبرينى في

بيان منزلة الشيخ عند القوم : وهذا هو منتهى ما بلغ توقفه ، وهو أمر كبير عند مطالبته بالبيعة ، ولولا علو منصب الفقيه ابن على رضى الله عنه ما ساعده (ابن غانية) عليه ٠

وفيما يعود الى تاريخ العقيدة الاسلامية والتدين بالاسلام عند هؤلاء الملثمين ، نرى فيما تذهب اليه بعض الروايات ان فتوحات عقبة بن نافع الفهرى فى دورته الثانية (62 هـ/682 م) بلغت الى مدينة (نول)،وهى كما عند البكرى والادريسى مدينة كبيرة عامرة كانت لبني (كدالة) على ساحل المحيط الاطلسى ، هى آخر مدن الاسلام وأول العمران من الصحراء ، وكانت بعض قبائل الملثمين تنزل هذه البلاد ، فقاومت عقبة أول الامر دفاعا عن كيانها ، ولكنه هزم مسوقة واخضع الملثمين لسلطان الاسلام ، وهذا ما نجده عند ابن أبى زرع حينما تحدث فى (الانيس المطرب ٠٠٠) عن مدينة (تاتكلاتين) القريبة من موضع (بغارة) السودانية غربا ، قال : « ٠٠٠ يسكنها قبيلة من صنهاجة يعرفون ببنى وارث ، وهم قوم صالحون على السنة والجماعة ، واسلموا على يد عقبة ابن نافع الفهرى أيام فتحه للمغرب ، وهم يجاهدون السودان الذين هم على غير الاسلام ٠٠٠»وقال :

« ٠٠٠ وكثيرهم على السنة والجماعة يجاهدون السودان »٠ وهذا ما نرى ابن خلدون قد وافق عليه فى تاريخه الكبير حيث قال فى سياق سرده لحوادث فتوحات عقبة بالمغرب : « ٠٠٠ ثم أجال الى بلاد السوس فقاتل من بها من صنهاجة أهل اللثام وهم يومئذ على دين المجوسية ولم يدينوا بالنصرانية ٠٠٠ » ٠ وبذلك يكون عقبة أول من حمل أهل اللثام على الاسلام ، ثم اتصل بهم بعد ذلك موسى بن نصير (86 هـ/705 م) فدعاهم الى الاسلام مرة أخرى فأقبلوا عليه ودخلوا فيه.هذا بالنسبة الى القرن الاول الهجرى ٠

ولكن ابن خلدون نراه يعود الى ذكر الملثمين فيثبت لنا تاريخا آخر لزمن اسلامهم ، وهو متأخر عما سلف بكثير ، اذ نجده يقول : « ٠٠٠ كان هؤلاء الملثمون فى صحاريهم كما قلناه ، وكانوا على دين المجوسية الى ان ظهر فيهم الاسلام لعهد المائة الثالثة » ؟ ٠

ونحن نعلم ان هذا العهد الذى أشار اليه ابن خلدون ــ المائة الثالثة بالمغرب كان قد شارك فيه كل من دولة الادارسة والاغالبة والرستميين ، فأين هذا من عهد

عقبة ؟ ... فأى التاريخين أحق باليقين ؟ ... وإنما الامر الذى نتحققه بشأن ازدهار الاسلام فى هذه المنطقة الصحراوية النائية ، هو منذ حل بها الفقيه المالكى عبد الله ابن ياسين الجزولى صحبة زعيم قبيلة (كدالة) الامير يحيى بن ابراهيم (430 هـ 1039 م) ، فمنذ يومئذ أخذت الدعوة للاسلام تنتشر بتلك البقاع من صحراء افريقيا ، وعمها الاسلام . وكان لهؤلاء الملثمين فضل تعميمه ونشره بجنوب صحراء القارة الذى هو يشتمل اليوم على عشر دول اسلامية مجاورة مستقلة .

ولم يقتصر تأثير الفتح على نشر الدين الاسلامى بين هؤلاء الاقوام بل جلب معه اليهم أساليب جديدة فى رعاية الماشية وتكاثرها وفى صنع الاسرجة وفنون العمارة والبناء والالبسة والإدارة والتنظيم،وظهر أثر الاسلام فى كل مناحى الحياة ، وصار الانتساب الى الاب هو القاعدة بعد ما كانت الام هى المرجع فى نسب الاسرة ، وقام الاسلام بدور كبير فى تغيير الانظمة السياسية والاجتماعية .

مصــادر البحــث

ابن الاثــير : الكامل ـ ج 9 · ط بيروت 1966 م ·

ابن حوقــل : صورة الارض ـ بيروت بدون تاريخ ·

ابن الخطيـب : أعمال الاعلام ـ الدار البيضاء 1964 م ·

ابن خلــدون : كتاب العبر ـ ج 1 · 6 بولاق 1284 هـ ·

ابن خلكــان : وفيات الاعيان ـ ج 2 بولاق 1299 هـ ·

ابن أبى زرع : الانيس المطرب ـ ج 2 الرباط 1936 م ·

أحمد توفيق المدنى : كتاب الجزائر ـ ط الجزائر 1350 هـ ·

أحمد توفيق المدنى : جغرافية القطر الجزائرى ـ الجزائر 1948 م ·

أحمد شلبى : موسوعة التاريخ الاسلامى ـ ج 6 القاهرة 1972 م ·

الادريسى : نزهة المشتاق ـ ليدن 1864 م ·

البكــرى : المسالك والممالك ـ الجزائر 1857 م ·

حسن ابراهيم : انتشار الاسلام فى القارة الافريقية ـ القاهرة 1963 م ·

سام وابريل ابشتين : الصحراء ـ القاهرة 1966 م ·

سعيد الشرتونى : اقرب الموارد ـ بيروت 1889 م ·

عبد الجليل الطاهر : المجتمع الليبى ـ بيروت 1969 م ·

عبد الرحمن الجيلالى : تاريخ الجزائر العام ـ ج 1 · ط 3 الجزائر 1971 م ·

عبد الوهاب بن منصور : قبائل المغرب ـ ج 1 الرباط 1968 م ·

الغبريــنى : عنوان الدراية ـ الجزائر 1910 م ·

الفيروز ابادى : القاموس المحيط ـ بولاق 1301 هـ ·

القلقشنــدى : صبح الاعشى ـ ج 5 · ط الاميرية بولاق ·

النــاصرى : الاستقصا ـ ج 2 الدار البيضاء 1954 م ·

ياقوت الحموى : معجم البلدان ـ ج 5 بيروت 1957 م ·

الحياة الاقتصادية والاجتماعية
عند طوارق أهجار

اسماعيل العربى

على الرغم من أن الطوارق يتمتعون بخصائص أصيلة تميزهم عن جميع القبائل الصحراوية ، فهم يشتركون فى بعض السمات مع جيرانهم التيدة . فهم ، مثلا ، كالتيدة يرتدون القطن ويحملون اللثام الذى اشتهروا به والذى اتخذوه رمزا لهم منذ أقدم العصور . وهذا التشابه والتقارب فى العادات هو الذى حمل بعض الباحثين المحدثين على الاعتقاد بان الطوارق الاوائل قد استولوا على الاراضى التى كانوا يحتلونها واغتصبوها من قوم لهم شكل زنجى عام من أقارب التيدة .

ولكن هذا الرأى لا يزال مجرد فرض ، وحتى لو صح ، فهو لا يلقى ضوءا على أصل الطوارق ، حيث أن التيدة (أو التبوُّ) لا يزال مجهولا لدينا ، فلا نعرف ما اذا كانوا من الزنوج ، أو هم ينتمون الى قبائل الشمال .

واللثام الذى يحمله الطوارق ، على عكس الاعتقاد السائد ، ليس بلباس وقائى ضد رياح الصحراء وزوابعها الرملية (والمرجح أنه لو كانت له هذه المزية لسارعت جميع قبائل الصحراء الى تبنيه منذ أجيال طويلة) ، ولكنه عادة عريقة فى القدم حيث كان قدماء الطوارق يحملونه بصفة رمزية لوقاية الفم والمناخر ، وبالتالى ، مداخل الجسم من تسرب الارواح الخبيثة اليه ٠

وقبيل الطوارق ينقسم الى ثلاثة فروع أساسية : طوارق تاسيلى ناجار ، وأهجار ، وادرار نيفوغاس ٠ وهى موزعة على هذا الترتيب من الشمال الشرقى الى الجنوب الغربى ٠ ولكن معظم الطوارق الذين يقدر عدد مجموعهم بنحو 150 الف نسمة ، موزعون فى مناطق أخرى أيضا غير التى ذكرناها ، ولا سيما فى آير وشمال السودان وشرقيه ٠ على أن اهجار هى مركز القبيل ، وهى المعقل الذى استعصى على النفوذ الاجنبى من جميع الانواع وفى مختلف الاوقات والازمنة ٠

والاراضى التى كان يعيش فيها الطوارق وينتجعون الكلأ قديما أراضى شاسعة تمتد على وجه التقريب حتى شمال ورقلة وحتى القطرون شرقا ، ووراء خط يسير من « أولف » الى تمبكتو غربا ، وجنوبا حتى منعطف نهر النيجر وحدود نيجيريا الشمالية٠ ولكنه فى غضون القرون الاخيرة تقلصت هذه الرقعة تدريجيا لعدة عوامل أهمها الضغط الذى مارسته هجرة العرب عبر القرون من الشرق والشمال ، ثم توغل الاستعمار الفرسى والايطالى فى الصحراء فى الازمنة الحديثة ٠

ونتيجة لتقلص مجالهم الحيوى ، اتجه الطوارق تدريجيا للهجرة الى أدرار نيفوغاس والى آير والسودان ٠ على أن ظروف القحط وغيرها كثيرا ما كانت دافعا للانتقال بعيدا عن الرقعة الجغرافية التى تعيش فيها قبيلة من قبائل الطوارق ٠ وقد حدث عقب الثورة التى قام بها الطوارق فى الفترة بين 1916 ـ 1918 ، أن هاجرت جموع كبيرة من آير الى نيجيريا التى كانت تحت الحكم البريطانى آنئذ ، كما غادرت جماعات كبيرة من قبيلة «طايطوق» منازلها من غرب أهجار لتستقر فى المناطق الواقعة غربى اجاديس٠

ولكن التحركات الاولى الهامة التى عرفها الطوارق ترجع الى القرن الثامن الميلادى (الثانى الهجرى) عندما أحس هذا القبيل بآثار الغزو العربى ٠

نأهجار الطوارق تشمل أراضيه على وجه التقريب المنطقة التى تمتد بين أمجيد ، وحزام ، وجنات ، وأوالن ، وهى مساحة تقرب من 140 000 ميل مربع ٠

والاحصاءات التى تتعلق بالرحل وبسكان الصحراء ، قلما تكون دقيقة ، وهى على العموم لا تتجاوز كونها تقديرات ، والتقديرات الحديثة لسكان المنطقة (وهى فى رأينا متحفظة) هى كما يلى : يقطن الهجار 4400 من الطوارق ونحو 4000 من الزنـوج ، وذلك بالاضافة الى 3500 من الحراثين المستقرين وعدد صغير من العرب الذين يعملون فى حقل التجارة ٠

والطوارق ينقسمون الى عدد من القبائل ، وكل قبيلة منها تنقسم الى افخاذ وعشائر ولكن الطوارق الرحل ينقسمون الى أسياد نبلاء واتباع وعبيد من الزنوج ٠ وصفــة تتحلى بها العشيرة كلها ، وأما الفرد فهو انما يكتسبها بالانتماء ٠

وطوارق أهجار يتكونون من ثلاث قبـائل ، وهى : «كَلّ رولـة(و «تيغيه ملت» و « طيطوق » ، وعلى رأس كل قبيلة منها عشيرة نبيلة تحمل اسمها ٠ وبما أن العشيرة النبيلة تفضل جميع العشائر وتعلو عليها ، فان رئيس العشيرة النبيلة هو ، بالضرورة رئيس القبيلة ، والعشائر النبيلة واتباعها مصنفة على الترتيب المتقدم ٠ وهكذا ، فان رئيس « كل رولة » هو رئيس قبيلته ، وهو في نفس الوقت « امنكول » رئيس قبائل الهجـــار ٠

ورئيس العشيرة النبيلة يختاره مجلس يتكون من رؤساء أسر العشيرة ، ولكن هذا الاختيار لكى يصبح نافذا يقتضى الامـر ان يؤكده مجلس للقبيلة يتكون مـن رؤسـاء العشائر من الذكور يمثل القبيلة كلها ، والامر كذلك بالنسبة الى اختيار أمنكول الذى يجب أن يصدق عليه رؤساء العشائر فى القبائل كلها ، والرئاسة ورائية من نـاحية الام وليس من ناحية الاب ٠

ومركز العشيرة فى القبيلة عائم نوعا ما ، فان عشيرة ما تستطيع فى أوقات الشدة أن تنطوى تحت علم قبيلة تضمن لها حماية أقوى مما تقدمه لها قبيلتها ٠ وكذلـك كانت عشائر الاتباع فى الماضى تغير ولاءها كثيرا وتتردد بين قبيلة وأخرى ٠

والزواج يقع ــ عادة وليس دائما ــ فى داخل العشيرة ، وفى الدرجة الثانية من القرابة ٠ وطفل الطوارق يرث الجاه والثروة عن طريق الام ، وذلك بقطع النظر عما

اذا كانت تنتمى الى عشيرة أبيه أم لا • على ان الميراث فى الطوارق يجرى منذ دخول الاسلام الى هذه المنطقة طبقا لقواعد الشريعة الاسلامية (للذكر مثل حظ الانثيين) •

واطفال الطوارق يعيشون وتجرى تربيتهم فى حضن الجماعة التى اختار الابوان الانتماء اليها بصفة دائمة • والارملة واطفالها غير المتزوجين كثيرا ما يعيشون فى كنف خالهم ، ومتى كان أحدهم متزوجا ، عاشت أمه واخوته معه •

واحتفاظ الرجل بزوجة واحدة فى وقت واحد هو القاعدة بين الطوارق ، والطلاق قد يقع ، ولكن الناس هناك يعتبرونه « ابغض الحلال عند الله » • وعلى عكس ما زعمه بعض الكتاب الاوروبيين (مثل بلانجرنود) ، فان الزنى بين الطوارق ليس أكثر شيوعا منه لدى غيرهم من المجتمعات الصحراوية والافريقية الغربية • وما ردده بعض هؤلاء الكتاب من أن المرأة الطوارقية قد تهب نفسها للضيوف والاصدقاء ، قول لا أساس له من الصحة ، وهو من الاساطير الكثيرة التى عاد بها بعض السياح الذين كانوا يعتقدون بانهم هم وحدهم الذين عرفوا الهجار وكتبوا • ونحن ندرك مدى بعد هذه الاقوال عن الحقيقة اذا تذكرنا أن العرف المعمول به بين الطوارق يسمح للرجل الذى خانته زوجته بقتلها ، هى وصاحبها •

والعرف والتقاليد تمنح العروس الحق في أن تحتفظ لنفسها بمالها وبكل ما تملكه، بما فى ذلك الماشية ، وذلك فى الوقت الذى يتولى الرجل فيه الانفاق عليها ويدفع تكاليف حفلة الزواج من جيبه الشخصى ، هى تقاليد لا ندرى مدى قدمها ولكننا نلاحظ أنها تتفق مع أحكام الشريعة الاسلامية • على أن المرأة تستطيع ، أن شاءت ، أن تساهم فى هذه التكاليف والنفقات •

والمرأة الطوارقية تعامل بكثير من الاحترام والتبجيل ولو أنها لا تتحمل أية مسؤولية اجتماعية خارج حدود منزلها •

ويعتبر العرف الزعيم ، أمنوكل ، هو مالك الارض ، وبهذه الصفة يوزع على العشائر أراضى محددة لاستغلالها ، ولا يحق لصاحب الحق الدخول اليها الا بعد أذن الامنوكل ، هذا باستثناء العشائر النبيلة التى تتمتع بالحرية فى الرعى فى أية أرض

تشاء • وكثير من الطوارق يملكون بساتين النخيل وحدائق وأشجار الفواكــه فى المناطق الزراعية ، وبعضهم يملك أيضا حقوقا للصيد فى مناطق معينة •

وكما هى الحالة عند التيدة ، فان الذين يحرثون الارض ويعنون بالبساتين وجنى الغلل فى أوقات نضجها ، هم الحراثون (من السود) والخماسون • وأما الطارقى الذى يعتز بنفسه ، فيرى أن ممارسة العمل الزراعى أمر مشين ويحط من قدره •

والعشائر غير النبيلة تجمع ضريبة سنوية لزعيم القبيل ، أمنوكل ، أو لرئيس قبيلتها ، أو لكليهما • والضريبة تدفع عينا فى شكل اكيال من التمر والذرة واللحم المجفف والزبدة والمهارى ورؤوس الغنم والماعز والمنتجات المصنوعة • وكذلك تدفع العشيرة جزءا من المنتجات المستوردة ، كما تقدم نصيبا من الارباح التى تحققها فى تجارة القوافل لأمنوكل ، وذلك فى مقابل الحماية التى يقدمها لاتباعه وسهره عــلى شؤون الامن والنظام •

وشعب الطوارق ، مثل سائر القبائل الرحل ، يعيش على الماشيه التى تعيش بدورها فى المراعى • والمراعى فى بلاد الطوارق نوعان : ذلك العشب الضعيف والمائل الى الصفرة ، والشيبجرات ، والحسك المنتشر بصورة غير منتظمة هنا وهناك ، ولا سيما ، فى قيعان الاودية • والنوع الثانى يتمثل فى العشب الاخضر والكثيف الذى ينبت وينمو فى مناطق معينة وقتا قصيرا ، عقب سقوط الامطار •

والمراعى فى أهجار قليلة وموزعة فى مناطق متباعدة فى صحراء المنطقة • ولهذا السبب يحتاج الرحل من الطوارق الى التنقل والانتجاع لارضاء حاجة مواشيــهم الى العشب الطرى ، حيث أن المراعى التى تحيط بالمخيم لا يلبث أن ينفد ما فيها مــن الكلأ • ويزيد من وطأة الحاجة الدائمة الى التنقل ، ندرة مواقع المياه والآبار ، فانــه كثيرا ما يحدث ان يعثر الرحل على مرعى خصيب العشب ، ولكنهــم لا يستطيعون استغلاله سوى يوم واحد ، بسبب بعده عن موقع الماء •

وهذه المجموعة من الاعتبارات هى التى فرضت على طوارق الهجار ضرورة انقسام القبائل الى مخيمات صغيرة سريعة التنقل تتكون من جزء صغير من عشيرة ، بل وفى

بعض الاحيان من أسرة واحدة فقط ، تتنقل من مرعى الى آخر كل فترة تتراوح بين أسبوع أو شهر • وهذا التنقل كثيرا ما يكون لمسافات طويلة ، ولو أنـه لا يخـرج عن نطاق حدود أراضى القبيلة •

وبمجرد ماتحط الرحال وتقام الخيم يأخذ الرجال فى استغلال المرعى قبل أن يشرعوا فى استكشاف المناطق المجاورة بحثا عـن مرعى جديد ومـوقع جديد للمخيم ، وهكذا طـوال السنـة •

والذين يقومون بقيادة المخيم بين الطوارق الرحل ، هم نبلاء القبيلة ورؤسـاء العشائر التابعة لها ، وهم الذين يتولون عملية البحث واستكشاف مراعى جديدة كما يقومون فى نفس الوقت بدور الحراس المدافعين عن المخيم ضـد غارات الاعـداء ، ويتربصون بالقوافل التى يمكنهم الغارة عليها ونهبها •

وأما رجال العشائر التابعة ، فان دورهم ينحصر فى الاعمـال اليومية وفى رعى الماشية ، فى الوقت الذى يشكلون فيه احتياطيا مسلحا حينما تدعو الحاجة الى ذلك ، أى متى وقعت معركة كبيرة • وأما العبيد فيقومون بالخدمة فى داخل المخيم •

وهكذا نجد أن توزيع الاختصاص والعمل الاقتصادى ، توزيع محكم فى قبائـل طوارق الهجار • وطبقة النبلاء والرؤساء الذين تقع على عاتقهم المسؤولية فى الدفاع عن القبيلة والهجوم فى الغارات ، طبقة أساسية خلقتها ظروف حياة الرحل تمثـل القوة فيها أساس الحق والقانون •

وهذا التنظيم الذى فرضته اعتبارات الحياة اليومية ، لا توجد صلة شبه بينه وبين نظام الاقطاع الذى كان يقف على قمته النبلاء فى العصور الوسطى فى أوروبا • والذين حاولوا المقارنة بين النظامين ، انما أخذوا بعين الاعتبار ظواهر التقسيم الطبـقى ، وليس حقيقته وطبيعة الدوافع اليه •

والنظام الطبقى التصاعدى السائد فى أهجار نظام ديمقراطى من حيث أن رئيس القبيلة وأمنوكل نفسه انما يتم اختياره بطريق الانتخاب باقتراع حر يشترك فيـه ممثلو العشائر النبيلة والعشائر التابعة ورؤساء القبائل على قدم المساواة • واذا تم

تنصيب أمنوكل ، لا يمكن لهؤلاء خلعه بنفس الطريقة السلمية (على عكس العرف المتبع عند الاباضيين ، مثلا) ، وبالتالى ، فان من الممكن القول بان نظام الحكم الذى يسير عليه طوارق أهجار ، هو أقرب الى النظام الديمقراطى الجمهورى ، منه الى النظام الا.ستوقراطى ٠

وقطعان الجمال والغنم والماعز تمثل مجموع رأس المال الذى يملكه شعب طوارق الهجار ، ومجمل استثماراته أيضا ، وبعبارة أخرى ، فان الثروة الحيوانية تشكل أساس الاقتصاد القومى فى المنطقة ٠ والثروة الحيوانية فى اهجار قدرت بارقام تختلف باختلاف الاوقات التى تناول فيها الباحثون هذا الموضوع ، ولكنه يبدو أن الارقام التالية قريبة من الواقع بصفة عامة فى السنوات الاخيرة (فى السبعينات) : 12000 رأس من الجمال ـ [illegible] رأس من الغنم ـ 20 000 رأس من الماعز ـ 5000 حمار ونحو 500 رأس من البقر ٠

وهكذا نرى أن الثروة الحيوانية فى أهجار متواضعة ، ولا سيما اذا اعتبرنا ان الحمير غير منتجة ولا تصلح الا لحمل الاثقال ٠ وعدد ما يملكه طوارق اهجار من البقر ليس له أهمية تذكر ٠ ومجموع الجمال المحتفظ بها فى أهجار لا يتجاوز 4500 جملا ، والباقى تخرج للرعى مع الرحل فى منطقة تمسنا وعند اطراف السودان فى منتصف المسافة بين آير ومنعطف النيجر ٠ وكذلك تخرج معظم القطعان للرعى خارج منطقة أهجار ، ولا سيما فى أراضى تن زواتنة التى تمتد فى الجنوب الغربى لجبال الهجار ، وفى شمال شرق تامسنا ٠

والطوارق يعنون بتربية جمال الركوب عناية خاصة ويبذلون كثيرا من الجهد لاعداد الجمل لمهمته ، منذ السنة الثانية من عمره، ويخصى الذكور منها فى سن الخامسة٠

واذا كانت الثروة الحيوانية والبساتين تشكل القاعدة الاولى لاقتصاد طوارق أهجار ، فان التجارة لها مكانة تاريخية فى نظام هذا الشعب الاقتصادى ٠ والمادة الاولى فى هذه التجارة هى الملح الذى يشكل حجر الزاوية فى التبادل التجارى ، بل والعملة الصعبة أيضا لهذا التبادل فى الصحراء كلها ٠

ففى شهر أبريل (أو مايو) يرسل بعض الطوارق خدمهم من السود للعمل فى منجم « أمدرور » لاستخراج الملح لمدة أسبوعين أو ثلاثة أسابيع .

وفى شهر يوليو ينقلون شحنات الملح على ظهور الجمال ويختارون مراعى تامسنا حيث يتيحون فرصة من الراحة لجمالهم . وبعد ذلك يبدلون بعضها بجمال أكثر حيوية واشد قوة ، ويمضون بها فى اتجاه المراكز التجارية الواقعة على الحدود الشمالية للنيجر . وهناك تجرى المعاملات التجارية لمدة نحو شهرين بالملح الذى يبادله الطوارق بالتمور والحمير والجمال والذرة وغير ذلك من منتجات الشمال ، والمنتجات المصنوعة المستوردة مثل ملابس القطن والاحذية والاوانى المنزلية والآلات المصنوعة من الصلب والحديد والاسلحة والذخيرة ... الخ .

وفى شهر يناير يعود طوارق الهجار الى الشمال ويستريحون بجمالهم بعض الوقت مرة أخرى فى تامسنا ، قبل ان يواصلوا سفرهم الى بلدهم الذى يصلون اليه فى شهر مارس أو أبريل .

والرحلة التجارية الاخرى التى يقوم بها طوارق أهجار ، هى التى تتجه فيها القوافل الى أسواق « تيدكلت » وواحة توات . وهى تبدأ من الهجار فى شهر يناير أو أوائل فبراير وتنتهى فى شهر أبريل . وفى هذه الاسواق يبيع الطوارق الجمال والاغنام والماعز والحمير ومنتجات الالبان ، مثل السمن ، ويشترون فى مقابلها التمر والملابس القطنية واغطية الصوف التى تصنع فى القرارة . والشاى والسكر .

على أن هذه الاسواق قد تقلصت كثيرا فى غضون الثلاثين سنة الاخيرة ، بسبب تدخل الوسطاء المجهزين بالشاحنات والذين استولوا على عمليات نقل هذه البضائع التى كانت القوافل تحملها من الشمال . وهذه التجارة ، على كل حال ، لا تزال موجودة ، ولكنها تجرى بصفة غير مباشرة وأصبحت تجارة داخلية فى الهجار .

كان الملح والتمر يجرى تبادلها فى العصور الماضية فى البلدان الواقعة على منعطف نهر النيجر بالجمال والغنم والذرة والارز ، كما كانت الجمال وجلود الماعز تباع فى أسواق غدامس فى مقابل السيوف والثياب المطرزة والتمور والشاى والسكر . وهذا

المركز التجارى العريق ـ غدامس ـ لا يزال حتى الآن مهما نوعا ما لانتاج الادوات والاوانى المعدنية والسيوف وللتجارة فيها ٠

والى جانب تجارة القوافل يمارس الطوارق مراقبة القوافل فى الاراضى الواسعة التى تخضع لسيطرتهم ٠ فقد ذكر المستكشف الالمانى ، بارث ، منذ نحو قرن ، أن أمنوكل اهجار « جيماما » كان يسيطر على جميع النشاط التجارى الذى يجرى عن طريق القوافل بين مرزق وتمبكتو ، وهذه الحالة ربما كانت ترجع الى عدة قرون قبل ذلك التاريخ ٠ والمعروف ، على أى حال ، ان طوارق الهجار كانوا يسيطرون على طرق التجارة فى المنطقة التى تمتد بين « أودان » وجنوبه حتى شمال نيجيريا ، وذلك ، على الاقل ، منذ القرن الخامس عشر الميلادى ٠

* * *

كان الطوارق الذين يسيطرون على طرق التجارة فى المناطق الجنوبية الغربية يمدون القوافل التى تمر بهذه الاراضى بادلاء ومرشدين مسلحين لحمايتها ٠ وفى مقابل خدمات الحماية يفرضون اتاوة تقدر قيمتها على أساس قيمة البضائع التى تنقلها القافلة ، وعلى أساس ثروة مسيرها ، على أن أصحاب القوافل كانوا كثيرا ما يرفضون الرضوخ لتقديرات الطوارق ، كما أن بعض القوافل تصطحب معها فى بعض الاحيان ادلاء ومرشدين وحراسا مسلحين ٠ وفى هذه الحالة تسير القافلة بدون حماية ٠ ولكن الطوارق يتعرضون لها فى معظم الحالات ليثبتوا سلطانهم فى أراضيهم وحتى يتخذوا من القافلة المتمنعة درسا وموعظة لغيرها ٠ وهكذا كان الطوارق ، مثل الشعانبة ، جيرانهم في الشمال يفرضون سلطانهم على حركات التبادل التجارى فى الصحراء الجنوبية الغربية قرونا متواصلة ٠

ومثل غيرهم من القبائل الصحراوية القوية ، كان الطوارق يمارسون فى الماضى نشاطا آخر مربحا من الناحية الاقتصادية ، ونعنى بذلك نشاط الغارات التى يشنونها على القبائل الاخرى ، اما لغرض السلب ، واما بسبب الاحقاد والضغائن وطلب الثأر ٠ وهذه الغارات كثيرا ما تتخذ شكل هجمة ليلية مفاجئة تقوم بها جماعة صغيرة من

الرجال تستولى على ما امكنها الاستيلاء عليه من الماشية ثم تختفى فى الطبيعة الصحراوية ولا سبيل الى تعقبها أو اقتفاء أثرها · وعبيد الطوارق كانوا هم أيضا يقومون بغارات على قرى السود التى تقع فى أطراف الصحراء ويعودون بسبى وغنائم تعزز ما يملكه المخيم من اليد العاملة من العبيد · على أن هذه الغارات اختفت فى العصور الحديثة نتيجة لتحريم الرق ، كما اختفى المورد الذى يجنيه الطوارق من حماية القوافل التجارية ، ومن تسيير القوافل ، عقب حلول السيارة الشاحنة محل الجمل فى نقل البضائع عبر الصحراء · وهذه التطورات كان لها أثر قوى لوحظ منذ أواخر القرن الماضى فى تدهور الاقتصاد فى منطقة اهجار ـ ذلك الاقتصاد الذى لم يكن يتسم بالقوة على كل حال ، فى أى عصر فى تاريخ هذا الشعب الذى ظل القرون تلو القرون متمسكا بنمطه الثقافى الخاص وبطريقة معيشته التى لا يرضى بها بديلا ·

وهذا النمط الثقافى سوف يفتض الاستعمار الفرنسى أسراره ويوقف نموه الطبيعى بعد ما بسط سيطرته على أهجار عقب المعركة التى وقعت فى واحة « تيت » الصغيرة بين جيش فرنسى بقيادة الملازم « كونتنست » والطوارق يوم 7 مايو 1902 ، والتى أبدى فيها رجال الهجار ضروبا من الشجاعة والبطولة لا تقل عما أبدوه فى معارك سابقة كان النصر فيها حليفهم ، ولا سيما فى المعركة التى تحمل اسم قائد الجيش الفرنسى فيها « فلاتر » ·

فمنذ ذلك التاريخ أصبح الطريق الى أهجار مفتوحا أمام رجال الادارة العسكرية الفرنسية وأمام أنماط الثقافة الاستعمارية ، وخصوصا ، أمام أفواج المبشرين بتوجيه شيخهم ، شارل دو فوكول ، وبحماية حراب « لابيرين » ·

والطوارق الرحل يعيشون فى خيام خاصة تصنع عادة من جلود الماعز ، واحيانا من جلود الغنم أو العجول ، ولكن النبلاء يتخذون لانفسهم خياما من جلد الموفلون وتعتبر الكلمة الاخيرة فى البذخ والاناقة · والجلد يدبغ ويجهز بصفة خاصة ويكون ناعم الملمس وذا لون مائل الى الحمرة · وبعد اعداده يقطع الى قطع متلائمة ثم تخاط قطعة بأخرى بعناية بخيط من الجلد نفسه · وعدد قطع الجلد الضرورية لصنع خيمة واحدة يتراوح بين 30 و 150 قطعة ، وذلك حسب كبر حجم الخيمة وصغره · والخيمة المتوسطة

المنتهية الصنع تزن عادة ما يتراوح بين 25 و 30 كيلوغرام . ومتى انتهى صنع الخيمة ركبت على أعمدة عمودية وافقية من الخشب .

وأثاث الخيمة يتكون من جلود الغنم المصنوعة ومن السجاد الذى يستورد من الشمال، ومن اكياس الجلد التى تودع فيها المواد الغذائية ، والامتعة الشخصية والسروج والاسلحة والاوانى المصنوعة من الخشب .

والمخيمات تقام دائما فى مكان مرتفع وغير ملحوظ ، وذلك فيما عدا الاوقات التى لا تغطى الشمسَ فيها غيوم ، وحينما يثق الناس بانه لا يوجد خطر نزول الامطار فجأة وتنجم عنها سيول . وكل خيمة تشغلها عائلة واحدة تتكون عادة من جميع أفرادها . والمخيم قلما يزيد عدد الخيم فيه عن 5 أو 6 خيم ، ولكن مخيم أمنوكل يحتوى عادة على ما يتراوح بين 15 و 20 خيمة .

كانت ملابس طوارق الهجار فى الماضى تتكون من قمصان مصنوعة من الجلد تنزل الى ما تحت الركبة . وحواشيها مزينة بالزخارف ، وهذا القميص قد استمر حتى أوائل القرن التاسع عشر ، على الاقل ، لان السائح "ليون" ذكر أن رجالا من الطوارق زاروا مرزق فى سنة 1819 وكانوا يرتدون هذا النوع من القمصان. ولكن المستكشف الفرنسى ، دو فيريى ، يخبرنا بعد ذلك بأربعين سنة بأن هذه القمصان نادرة فى الهجار.

والقطعة الاخرى التى اختفت من ملابس الطوارق ، هى نوع من لباس الرأس يشبه الطربوش ، وهو مصنوع من اللباد وتدار حولها عمامة خاصة . وعلى الرغم من أن بعض رجال القبائل المغربية لا يزالون يرتدون هذا النوع من « الطرابش » حتى الآن ، وأنها كانت تمثل لباس الرأس الشائع فى الهجار أثناء زيارة دو فيريى له ، فهو قد اختفى منذ نحو نصف قرن من الزمن .

ورجال الطوارق حاليا (عدا من اعتمد منهم اللباس الاوروبى) يرتدون سراول فضفاضة سوداء أو ذات لون أزرق غامق مصنوعة من القطن تنزل حتى الركبة وطرفى الرجلين حتى العقب ، وفوقه قميض واسع من القطن حلت محله « القندورة » التى لم تعش طويلا هى الاخرى ولا سيما بين سكان المدن حيث قضى الزى الاوروبى على

الملابس التقليدية ، مثل ما هي الحال في المناطق الاخرى من الجزائر • وكذلك كان الطوارق يلبسون رداءا خارجيا فضفاضا مصنوعا من الصوف في أيام البرد • ولكن هذا الرداء حل محله البرنوس المستعمل في الشمال •

وينتعل الطوارق نوعين من لباس الرجل ، احدهما عبارة عن صندل ينعكف آخره على أصابع القدم ويمسك بواسطة خيط من الجلد ويمتد بين الاصبع الكبير والاصبع الصغير الى الكاحل (رسغ القدم) • والنوع الثاني يستورد من السودان ، وهو عبارة عن صندل مسطح أوسع من القدم بنحو بوصة في جميع الاتجاهات ويربط بخيط رقيق من الجلد بالرجل •

هذا بالنسبة الى الرجل • وأما نساء الطوارق فيلبسن ثوبا مصنوعا من القطن يتدلى حتى ما تحت الركبة ، وسراول فضفاضة مثل سراول المدنيات في عاصمة الجزائر (وهي تركية الاصل) ولو انها اقصر قليلا • وكذلك يلبسن نوعا من القندورة بيضاء وأخرى زرقاء فوقها ، ويتوج كل ذلك بشال ووشاح يغطي الرأس أزرق مصنوع من القطن • وكذلك كانت الطوارقيات في الماضي يلبسن في الصيف نوعا من القبعات واسعة الحواشي مخروطة الشكل مصنوعة من القش ، ولكن هذا اللباس اختفى الآن تقريبا •

* * *

يتفق الباحثون على أن الطوارق قبيل بربري من أقدم من سكن الصحراء • وهذه الحقيقة التي اشار اليها الرحالة المغربي ، ابن بطوطة ، أكدها من قبل أبو عبيدة البكري الذي كان يكتب في القرن الخامس الهجري (11 ميلادي) حين يقول في وصف تادمكة (في أدرار ايفوغاس) ما يلي :

« وتادمكة اشبه بلاد الدنيا بمكة • وهي مدينة كبيرة بين جبال وشعاب ، وهي احسن بناء من مدينة غانة ومدينة كوكو • وأهل تادمكة بربر مسلمون • وهم يتنقبون كما يتنقب بربر الصحراء ، وعيشهم من اللحم واللبن ومن حب تنبته الارض من غير اعتمال ، ويجلب اليها الذرة وسائر الحبوب من بلاد السودان ، ويلبسون الثياب

المصبغة بالحمرة،من القطن والنولى وغير ذلك • وملكهم يلبس عمامة حمراء ، وقميصا أصفر ، وسراويل زرقاء ، ودنانيرهم تسمى « الصلع » ، لانها ذهب محض غير مختومة • ونساؤهم فائقات الجمال لا تعدل بهن أهل بلد » •

على أن الباحثين المحدثين ، وفى مقدمتهم ابن هزرا (Benhazra) وبلانجرون (Blangueron) يتفقون على أن عددا من القبائل التابعة للطوارق والمعدودة منها ، تنتمى الى أصل عربى ، أو الى أصل عربى طارقى مختلط • وهؤلاء يجتمعون فى عدد من العشائر تضمها علاقات تشبه علاقة القبيلة ، ويسمون « اسوكمرن » ويقول ابن هزرا ان اسوكمرن يزعمون انهم ينحدرون من أصل امرأة اشتراها عربى من الغزاة العرب الذين جاءوا الى البلاد فى منتصف القرن السابع (كذا) الميلادى • ولكن الطابع الاسطورى لهذه القصة واضح ، حيث أن ذلك معناه أن العرب قد وصلوا الى أدرار قبل الفتح العربى للمغرب بعدة اجيال ، وبالتالى فان هذه القصة ليست أصح ولا أقرب الى المنطق التاريخى من تلك التى يرددها مؤرخو العجائب والغرائب من الغربيين الذين يزعمون أن الطوارق ينحدرون من أصل قبيل من الصليبيين ظلوا طريقهم وتاهوا فى الصحراء بعد هزيمتهم فى الشرق وقطعوا الفيافى حتى استقر بهم المقام فى الهجار•

ويعتقد مؤرخ الصحراء والمستكشف المعاصر « لهوط » (Lohte) أن اسوكمرن ينحدرون من أصل من العرب من ناحية الاب ، ومن الطورق من ناحية الام • وهؤلاء الامهات ينتمين الى منطقة تادميت • ولكن بلانجرون يرى أنهم ينحدرون من أصل عربى من واحتى تيدكلت وتوات ، هزمهم الطوارق فى القرن الثامن عشر ، أو قبل ذلك قليلا ، واختلطوا بهم وضموهم الى قبائلهم •

ولكن هذا الانتساب الى العروبة ليس له فيما يبدو ، أى تأثير على وضع اسوكمرن الاجتماعى ، حيث ، أن الطوارق يضعونهم فى نفس المرتبة التى يضعون فيها العشائر (التابعة) غير النبيلة • على أن اسوكمرن الذين أثروا فى العصور الاخيرة ، وأصبحوا يملكون كثيرا من الجمال ، يتمتعون بسمعة ونفوذ كبير استعاضوا به عما فاتهم من شرف الانتساب فى التنظيم الهرمى الطارقى •

ومن أهم عشائر اسوكمرن ، عشيرة اريجناتن(Arreguenanten) التى تعيش فى منطقة تامسنا ، فى جنوب أهجار ، وتمتد مجالات رعيها من هناك فى الاتجاه الشمالى الغربى ، عبر أدرار ايفوغاس لتصل أحيانا الى عرق الشيش · ويسود الاعتقاد بانهم ينحدرون من أصل من عرب القرارة ونساء من الطوارق « أبوتناتن » · وهذه العشيرة الكثيرة العدد أصابت ثراء واسعا بحيث أقاموا لانفسهم نوعا من الاستقلال الذاتى وحصلوا على مركز اجتماعى لا تحلم به كثير من العشائر التابعة من الطوارق · وهم يتفرعون الى فرعين أساسيين : أهجرانن وستافنن ، يرجع كل منهما ـ فيما يعتقدون ـ الى أصل عربى ولكن جد كل منهما يختلف عن جد الثانى ·

والملاحظ أن العشائر التى تنتمى الى أصل عربى من الطوارق تعيش خارج جبال الهجار فى القوس الذى يحيط بها فى الغرب والجنوب الغربى والجنوب الشرقى وفى الجنوب ، حوالى أراضى قبيل الطوارق أجار ·

لم تستقر أسرة من الاشراف فى الطوارق، فيما نعرف قبل الاسرة المغربية التى هاجرت الى هناك ، وأقامت دولة شملت طوارق الهجار وطوارق أجار وحكمت دولة « امنانن » (وربما كان ذلك تحريفا للكلمة امامن ـ الائمة) حتى سنة 1650 ، حينما اغتال رجل من قبيلة أوراغن اجار « جمعة » ، آخر هؤلاء الائمة/السلاطين · وقد تلى هذا الحدث عهد من الفوضى والحروب الاهلية التى استمرت زمنا طويلا ·

وكذلك مارست الطريقة التجانية نفوذا قويا فى الهجار فى القرن الماضى وفى أوائل هذا القرن ، كما اعتنق بعض الطوارق الذين سافروا الى الاماكن المقدسة لاداء فريضة الحج الطريقة السنوسية وكونوا لها بعض الانصار لدى عودتهم الى الهجار ·

* * *

تلك هى المعطيات الاساسية للحياة الاقتصادية عند طوارق اهجار فى الماضى البعيد وفى الوقت الحاضر · ولكن هذه الجبال الراسخة قد أخذت تتحرك ، هى وسكانها ، فى اتجاه المستقبل · فان بلاد الطوارق لم تعد جزيرة من جزر الرمال تعيش فى عزلة منطوية على نفسها ، بل هى أصبحت جزءا لا يتجزأ من أرض الوطن · وقد شملها

البرنامج الخاص بالمناطق الصحراوية المحرومة ، ذلك البرنامج الذى لم يبدأ تطبيقه الا مؤخرا ، ولكننا نري مع ذلك بعض آثاره بادية للعيان ، هنا فى تمنراست ، عاصمة الهجار نفسها • والطائرة والسيارة تربط بلاد الطوارق بأقصى الشمال فتنقل منتجاتها اليه وتعود منه بالمصنوعات ومختلف المواد •

تلك وغيرها مؤشرات الى التحولات التى ستطرأ على مجتمع الطوارق فى نطاق التخطيط الجهوى للتنمية ، ولكن الامكانيات التى ينطوى عليها الهجار نفسه ، سوف توفر قاعدة متينة لانطلاق هذه المنطقة لكى تنفض غبار الدهور المتراكم عليها • وهذه القاعدة تتمثل ، خصوصا ، فى أهجار • فان اهجار هى « كلورادو » الجزائر فى المستقبل ، وبعد اليورانيوم ، اكتشف فيها مؤخرا معدن الذهب •

نعم ، فقد اكتشفت ثلاثة مناجم للذهب ، يقع احدها فى تيزين ، على مقربة من الحدود مع النيجر ، ويقع اثنان آخران فى تيرك وأمسمس ، فى ضواحى تيميمون (وهى مركز للحدود مع مالى) • ونحن لكى ندرك أهمية هذه المناجم التى لا تزال الجهود لاستكشافها فى المراحل الاولى ، يكفى ان نذكر ان المنجم الاخير وحده تمتد مساحته على 150 كيلومتر مربع •

وأما اليورانيوم ، فان أول اكتشاف له فى الهجار يعود الى سنة 1969 ، وذلك على الهضاب الاخيرة للهجار ، فى اتجاه الجنوب ، على مسافة 200 كيلومتر من تيميمون • والى جانب هذا المنجم الرئيسى توجد مناجم لنفس المعدن فى ولفرام ، ولو انها أصغر منه ، وهى منتشرة هنا وهناك ، وأهمها تقع فى العونى وفى تين امزى وفى بشير • ونشاط الاستكشاف الذى يتخذ قاعدتين له فى ابنكور وتميمون لا يزال يجرى على قدم وساق • والدراسة والبحث لا تزال فى المراحل الاولى لتحديد القيمة الاقتصادية لمعدنى اليورانيوم والذهب الموجودين فى الهجار • والخبراء يعملون الآن بجد واجتهاد لمعرفة المساحات التى تمتد عليها عروق المعدن ولتقدير كمية الاحتياطى منه ونسبة محتواه من التراب • وهذه كلها أمور فى طى الغيب ولا يمكن التنبؤ بها مسبقا ، ولكنه يكفى فى هذا المقام أن نشير الى ان شعورا قويا بالتفاؤل يسود دوائر الخبراء والاخصائيين الذين يعملون فى هذه الحقول •

اهتمامات الفرنسيين بالتوارق
ومنطقة الهقار من خلال ما كتبوه

د. يحيى بوعزيز
جامعة وهران

المحاور العامة لاهتمام الفرنسيين بجنوب الجزائر والصحراء :

يندرج اهتمام الفرنسيين بالتوارق ومنطقة الهقار ، ضمن اهتمامهم العام بجنوب الجزائر والصحراء ، الذى بدأ منذ احتلالهم لمدينة الجزائر عام 1830 ، ولكن المقاومة البطولية الصامدة التى واجهوها من طرف الشعب الجزائرى فى الشمال عاقتهم على ذلك قرابة اربعين عاما .

وقد اخذ الفرنسيون يتطلعون الى جنوب الجزائر ، وأقاصى الصحراء ، مع نهاية الامير عبد القادر ، والحاج أحمد باى ، وتنوعت اهتماماتهم بذلك الى ثلاثة محاور رئيسية ، وبارزة ، ركزوا عليها كثيرا ، وهى :

المحور الاول : وهو الهدف الاساسى لهم ، ويتمثل فى التركيز على الغزو والتوسع الاستعمارى الذى اعتادوا على نعته بالاستكشاف ، والتعرف على هذا المحيط الواسع

والمجهول من الرمال الصفراء بواحاته الخضراء المتناثرة هنا وهناك · واقترن هذا الغزو والتوسع الاستعمارى بمحاولة التعرف على امكانيات الصحراء الاقتصادية ، والبشرية ، لاستغلالها واستثمارها ، وبمحاولة استكشاف المظاهر الجغرافية الطبيعية : التضاريسية والمناخية ، والطوبوغرافية ، والطاقة المائية الجوفية · كما اقترن هذا الغزو والتوسع بدراسة المجموعات السكانية وعاداتها ، وتقاليدها ، وتاريخها السياسى ، والحضارى ، وأوضاعها الاقتصادية ، والاجتماعية ، والثقافية ·

المحور الثانى : بــرز كنتيجة للاهتمام الاول ، ولخدمتــه ، وتدعيمه · ويتمثل فى محاولة وضع شبكة من طرف المواصلات الحديدية ، والبرية ، واسلاك الهاتف · وذلك لتسهيل سبل التنقل فى ظروف آمنة ، للقوات العسكرية الغازية ، والمغامرين ، بــين مختلف المناطق الصحراوية الدانية والقاصية ·

فأخذوا يدرسون المظاهر الطوبوغرافية ، والتضاريسية ، والمناخية ، من أجل تحديد المناطق الصالحة لمــد تلك الطرق البرية ، والحديدية ، وتحديد اتجاهاتها ، وابــراز المحاسن والفوائد ، والصعوبات التى تعترض ذلك ، وتقــديم الحلــول ، والاقتراحات اللازمة · فتعددت رحلات المستكشفين ، والدارسين المختصين ، والمغامرين المرتزقة · وتعددت وجهات نظرهم كذلك حول تلك المشاكل ، والحلول ، والاقتراحات ·

المحور الثالث : والاخير ، برز كنتيجة للاهتمامين الاول ، والثانى ، ولخدمتهما معا ، كذلك · ويتمثل فى محاولة خلق بحر داخلى صحراوى ، من أجل احداث تعيير جذرى فى الظروف الطبيعية ، والمناخية ، القاسية للصحراء ، فاتجهت أنظــار الفرنسيين الى أحواض الجريد التونسى ، وأحواض بسكرة ، ووادى سوف ، فى الطرف الشمالى لحوض ايغرغر ، لاتخاذها نواة لهذا البحر الداخلى الصحراوى الذى قيل انه كان موجودا فى الزمن القديم ، وأن هيرودوت تحدث عنه ، ويدعى بحر تريتون · وسيربط هذا البحر بخليج قابس فى شرق تونس ، بواسطة قناة تمتد من نهاية شط فجاج الشرقية الذى يعتبر الذراع الشرقى لشط الجريد الكبير الذى لا يبعد كثيرا عن البحر والخليج (1) ·

1) انظر دراستنا بعنوان : الامير عبد القادر ومشروع قنــاة قابس والبحر الافريقى ، مجلة **الأصالة** ، عدد 25 (الجزائر جويلية ــ أوت 1975) ص 97 ــ 118 ·

دوافع اهتمام الفرنسيين بالتوارق ومنطقة الهقار :

يرجع سبب اهتمام الفرنسيين ، بالواحات الصحراوية الجنوبية ، ومنطقة الهقار ، الى تحولها الى معاقل للثوار والمجاهدين الذين كانوا يفرون من الشمال اليها ، للاعتصام بها ، والاستعداد مرة ثانية للمقاومة • وقد بدأ هذا الاهتمام يطغى على عقولهم ، منذ أحداث ثورة سكان واحة الزعاطشة بمنطقة بسكرة (2) ، وحركة الشريف محمد بن عبد الله بواحات الاغواط ، وورقلة ، وتقرت (3) • وثورة سكان الجنوب الوهرانى بزعامة أولاد سيدى الشيخ (4) •

واشتد هذا الاهتمام أكثر فى عقدى : الثمانينات ، والتسعينات ، بعد أن استعمروا غرب افريقيا ، وذلك من أجل ربط مستعمراتهم ببعضها البعض فى الشمال ، والغرب ، والوسط • وجاء تعرض بعض حملاتهم ، وبعثاتهم العسكرية التوسعية ، الاستكشافية ، الى هجمات الجزائريين فى اعماق الصحراء ، ليقوى عزمهم ، ويحفزهم أكثر الى التوسع والسيطرة ، على كل الواحات الجنوبية الصحراوية ، ومنها منطقة الهقار ، ووضع حاميات عسكرية بها ، أو فى بعضها ، تضمن لهم الامن ، والاستغلال بحرية ، وتسمح لهم بالتصدى لمقاومة ما دعوه : نشاط اتباع الطريقة السنوسية بليبيا ، ومنع سلطان المغرب الاقصى من التوسع الى بعض الجهات الاخرى خاصة منطقة توات •

وكان حادث مقتل الرجال التسعة لبعثة فلاتر FLATTERS الثانية عام 1881 ، من طرف فرسان التوارق ، بداية حقيقية لجهود الفرنسيين فى التوسع بجد ، الى منطقة الهقار باعماق الصحراء ، فكلفوا الجنرال طوماسين THOMASSIN بالتفاوض مع زعماء أولاد سيدى الشيخ الشراقة ، والغرابة معا ، لاقناعهم بالتوقف عن العنف ، والعودة

2) انظر دراستنا بعنوان : اضواء على ثورة الزعاطشة والشيخ بوزيان عام 1849 ، مجلة **الثقافة** : عدد 32 • (الجزائر ابريل ـ ماى 1976) ص 39 ـ 50 •

3) انظر دراستنا بعنوان : وثيقتان جديدتان عن ثورة الشريف محمد بن عبد الله ، مجلة **الثقافة** ، عدد 33 (الجزائر يونيو ـ يوليو 1976) ص 11 ـ 28 •

4) انظر دراستنا بعنوان : اضواء على ثورة اولاد سيدى الشيخ الاولى (1864 ـ 1873) • مجلة **الثقافة** ، عدد 46 (الجزائر أوغسطس ـ سبتمبر 1978) ص 11 ـ 32 •

جميعا الى الجزائر ، حتى يضمنوا لقواتهم الغازية ، الأمن والسلاح ، والرجال المحاربين ، وتم لهم ذلك عام 1883 ، بعد أن انتهت أحداث الشيخ بوعمامة ورفاقه ·

وقد كان حظ التوارق ، ومنطقة الهقار من اهتمامات الفرنسيين هو الغزو ، والتوسع ، والاستعمار ، والاستغلال ، وليس شيئا آخر · فاكثروا من ارسال الحملات العسكرية الى هناك بعنوان : الاستكشاف ، والاستعلام ، وانكبوا على دراسة المنطقة من كل النواحي : السياسية ، والعسكرية ، والاقتصادية ، والطبيعية ، والبشرية ، وتوارد على المنطقة عدد من المغامرين والمرتزقة من جنسيات مختلفة · حاول كل منهم ان يدرس جانبا معينا ، ويحوز قصب السبق فيه ، ويصبح بطلا · فظهرت دراسات كثيرة بعضها متخصصة ، والبعض الآخر في اطار الدراسة العامة لمنطقة الصحراء ككل ·

ومن ضمن هذه البعثات الاستكشافية التي مهدت للاستعمار الفرنسي لمنطقة التوارق والهقار ، بعثات : هنري دوفيري المتعددة الى مناطق التوارق ومزاب · وبعثة بيرتاردتانو الى جنوب طرابلس وغدامس ، والى بلاد التوارق أزجيل ، وبعثة ايدين من جانيت الى بيلما ، وبعثة ايروين دوباري الى غات والتوارق أزجيروتاسيلي ، وبعثة دو ، الى عين صالح وتيديكلت ، وبعثات فلاتر الى بلاد التوارق ، وبعثات فيرديناند فورو ، ولامي ، المتعددة الى معظم مناطق الصحراء ، وبعثة فلاماند الى عين صالح وتيديكلت · وبعثة فيلات لاختراق الصحراء من تيديكلت الى النيجر عبر الهقار · وبعثات كورتي المتعددة كذلك الى معظم مناطق الصحراء ·

وقد قام هنري دوفيري Henri Duveyrier برحلة مبكرة الى بلاد التوارق الشماليين فدرس منطقتهم التي يسكنونها ، من حيث التضاريس ، ومصادر المياه ، واستعرض قبائلهم المختلفة ، وانتاجهم الفلاحي ، وتاريخهم السياسي ، وعاداتهم ، ومركز مملكتهم القديمة · ودامت رحلته من 1859 الى 1862 · ومنحته الجمعية الجغرافية ميدالية ذهبية على أعماله هذه (5) ·

(5) Henri Duveyrier :

A) Notes sur les Touareg et leur pays (Paris Imp. L. Martinet, 1863), 24 p.
B) Exploration du Sahara. Les Touareg du Nord (Paris, Challamel, 1864), T. 1er XXXV + 501 p.

وأورد بوضربة تفاصيل كثيرة عن بلاد التوارق خلال رحلته التى قام بها الى غات أواخر الخمسينات ، وتحدث عن الاستكشافات التى انجزها من الاغواط الى غـات ، وعن نقاط المياه ، وحالة الاراضى التى مر بها من الناحية الاقتصادية (6) • وفعل مثله ايروين دو بارى : Erwing de Bary ، فقام برحلة الى غات ، وبلاد التوارق خلال عامى 1876 ــ 1877 ، وسجل احداث رحلته فى جريدة طريق يومية ، وبحث فى التاريخ السياسى للتوارق الشماليين ، ودرس أوضاع منطقة تاسيلى (7) •

واعتنى أوقيستان بيرتار ، ولاكروا ، بدراسة الغزو الفرنسى للصحراء منذ حملة الاحتلال الفرنسية عام 1830 الى مطلع القرن العشرين فوضعا دراسة مفصلة وموسعة قسماها الى سبعة اقسام ، وتناولا فى كل قسم جانبا معينا ، ومنها الزحف الاستعمارى على بلاد التوارق واحتلالها أواخر القرن الماضى ومطلع الحالى (العشرين) ، الذى أطلق عليه عهد المسح ، والتقسيم ، والاحتلال • وذلك على النحو التالى :

1 ــ المحاولات الاولى للغزو والاحتلال فيما بين 1830 ــ 1852 •

2 ــ عهد الماريشال راندون من 1852 الى 1864 •

3 ــ عهد الهدوء والسكون فيما بين أعوام 1864 ــ 1879 •

4 ــ عهد وضع مشاريع المواصلات الصحراوية من 1879 الى 1881

5 ــ عهد المسح ، والاستكشاف الواسع للصحراء فيما بين 1881 و 1890 •

6 ــ عهد تقسيم القارة الافريقية بين الفرنسيين والانجليز ، الى نهاية القرن •

7 ــ عهد احتلال الواحات الجنوبية الغربية فى مطلع القرن الحالى ونتائج ذلك (8) •

واهتم القبطان بيرنارد بدراسة احداث ونتائج رحلة فلاتر الاولى الى بلاد التوارق منذ اعدادها وتجهيزها بورقلة يوم 26 فيفرى 1880 الى عودتها الى الاغواط يوم 3 جوان

(6) I. Bouderba : Voyage à Ghat (du 1er août au 1er décembre 1858). (Bul. Soc. G. Paris, 1860 T. XX, p. 145 - 190.

(7) Erwing de Bary : Le dernier rapport d'un Européen par Ghat et le Touareg de l'Aïı (Journal d'Erwing de Bary, 1876 - 1877). Traduit et annoté par Henri Schirmer (Paris, Fiscbacher 1898). 221 p.

(8) Augustin Bernard et le commandant N. Lacroix La pénétration saharienne 1830 - 1906 (Alger, Imp. Algérienne, 1906). X + 195 p.

من نفس العام ، واستعرض اسباب اخفاقها ، وأكد ان البعثة تقرر تحطيمها ، وافشالها منذ البداية ، وذلك من خلال المعلومات التى استقاها من بعض أعضائها الذين شاركوا فيها ، كما استعرض أسباب اخفاق الحملة الثانية فى ديسمبر 1880، ومقتل فلاتر نفسه فى قلب بلاد التوارق أوائل عام 1881 (9) ٠

وكان فيرديناند فورو Ferdinand Foureau من الضباط الذين قاموا بعدة رحلات الى الجنوب عددها تسعة ، اخترق خلالها الصحراء الكبرى طولا ، وعرضا ، مع الضابط لامى LAMY ، ووضع عدة دراسات عن رحلاته ٠ فاهتم بالتوارق ومنطقة الهقار ٠ وتحدث عن الطرق الثلاثة التى تعرف عليها فى منطقة غدامس عام 1892 ، ولم تكن معروفة ومطروقة قبل ذلك من عين الطيبة الى حاسى مويلح ،ومات الله ، وزاوية تيماسين ، وحاسى ايمولاى ، وحاسى تويزة ٠ وتحدث عن رحلته الى بلاد التوارق أزجير عام 1894، والى تادمايت ، وباتن ، وعين صالح ، ولقويلى ، وتاسيلى أزجير ، وواد مهيرو ، وعرق ايساوان ، وشرح هزيمته أمام السكان ٠ وبتكليف من الحاكم العام قام فورو ، بتخطيط طريق من القليعة الى عين صالح ، وعين الفنارا ، وتاسيلى أزجير ، ودرس هيئة الارض ، ومقاساتها ، والظروف المناخية والفلكية ، وذلك خلال عام 1894 و 1895 ٠

وقد سجل أحداث رحلته الاولى فى دفتر طريق من بسكرة الى تيماسين ، ومنكرور ، فى تاسيلى أزجير داخل عرق ايساوان ، والعرق الكبير ٠ وكذلك أحداث رحلته الثانية من بسكرة الى البيوض ٠ فشرح طبائع التوارق ، وعاداتهم ، وتقاليدهم ، وتنظيماتهم ، واستعرض هجوم شعانبة الجرامنة عليه فى البيوض ، وأولاد رحمون ، مما اضطره الى قطع رحلته ٠

وفى عامى 1896 ــ 1897 قام برحلة طويلة فى الهضاب الجزائرية ، والتونسية ، شمال العرق ، وفى داخل العرق الكبير ، والهضاب العليا الجزائرية ٠ وسجل ما اكتشفه

(9) Le capitaine F. Ch. E. Bernard :
A) Quatre mois dans le Sahara. Journal d'un voyage chez les Touareg suivi d'un aperçu sur la deuxième mission du colonel Flatters (Paris, C. Delagrane, 1881) VII + 170 p.
B) Le Sebkha d'Amdghor et le massacre de la mission Flatters. (Bul. Soc. G. Paris, 1882) T. III, p. 415 - 417.
C) Deux missions chez les Touareg en 1880 - 1881 (Alger, A. Jourdan, 1896). 335 p.
D) Les deux missions transahariennes du lieutenant-colonel Flatters, (Bul. Soc. G. Alger, 1909) p. 43 - 61.

لدى التوارق أزجير ، والعرق من الآثار ، والعلوم ، وحدد المراكز العسكرية الفرنسية المؤقتة التى اقيمت فى تيماسين،وتحدث عن دور الضابط دو D'EU فى حمايته ، وحماية رفاقه خاصة لامى ، وبان : PEIN (10) .

وقام الضابط ميرى Méry برحلة الى غدامس ، صحبة ميرشير ، وبولينياك ، اهتم بها سيرفان ديسبلاس Servan - Desplaces (11) ، كما قام ميرى برحلات الى بلاد التوارق أزجير من أجل الحصول على حرية المرور للقوافل الفرنسية الى السودان الاوسط (12). وفعل مثله بيرنار داتانو Bernard d'Attanoux (13). وكانت نتيجة هذه البعثات والحملات، اقناع بعض عناصر التوارق بالخضوع للسلطات الفرنسية . فحضر بعضهم الى الحاكم العام مرتين : الاولى فى 19 نوفمبر 1892 (14) ، والثانية فى العام الموالى (15) . ثم فى مطلع القرن العشرين حضر أمينوكال الهقار موسى أ ق أماستان الى عين صالح فى 20 جانفى 1904 ، وكان ذلك بداية لخضوع منطقة الهقار ، والتوارق الى السيطرة الفرنسية (16) . ولعب أمينوكال هذا دورا بارزا مع الضابط الفرنسى نديليك :Nédélec

(10) Ferdinand Foureau :
A) Une mission chez les Touareg (Paris, Soc. G. 1893) 47 p.
B) Ma mission de 1893 - 1894 chez les Touareg Azdjer, le Tademayt, le Bâten et In-Salah, Léguélé, le Tassili des Azdjer, l'Oued Mihero, L'Erg d'Issaouan (Paris, Lib. Imp. Réunies, 1894) 65 p.
C) Rapport sur ma mission au Sahara et chez les Touareg Azdjer. Octobre, 1893 - Mars 1894 (Paris, A. Challamel, septembre 1894) VII + 279 p.
D) Mission chez les Touareg. Mes deux itinéraires sahariens d'octobre 1894 à mai 1895 (Paris, A. Challamel, novembre, 1895) 199 p.
E) Les Touareg de l'Est (Bul. Soc. G. Com. Paris, 1874 - 1895) T. XVI, p. 298 - 310.
F) Dans le grand Erg. Mes itinéraires sahariens de décembre 1895 à mars 1896 (Paris, A. Challamel, 1896) 106 p.
G) Mes missions dans le Sahara (Marseille, Imp. Barthelet, 1897) 16 p.
H) Mon neuvième voyage au Sahara et au pays touareg, Mars - Juin 1897 (Paris, A. Challamel, 1898) 151 p.
I) La mission Foureau - Lamy à la suite de la mission Foureau - Lamy, les reconnaissances du capitaine Pein (Bul. Com. A. F. 1899) pp. 176 - 178.

(11) Servan - Desplaces : La politique franco-touareg (N.R. 1893) T. LXXXIII, p. 165 - 169.

(12) La question du Touat et la pénétration par le Sud algérien (Bul. Com. A. F. 1892) Nos I p. 16 ; IV p. 8-12 ; X p. 18-19 ; VI p. 11 ; VII p. 1-17 ; IX p. 15 ; X p. 5 ; XI p. 3 ; XII p. 5-7.

(13) Bernard d'Attanoux : Voyage d'exploration chez les Touareg Azdjer (Lille, Imp. L. Danel, J. 1895) 17 p. et Deux missions chez les Touareg (R.G. 1893) T. XXXII pp. 457 - 463.

(14) Le Sud algérien en 1892 - 1893 (Bul. Com. A. F. 1893) Nos I à XII.

(15) Le Sud algérien 1893 - 1894 (Bul. Com. A. F. 1894) Nos I, p. 3 ; II, p. 1 - 12.

(16) Notre action au Sahara (Signé : un Saharien) (Bul. Com. A.F. 1904) p. 83 - 84.

في مقاومة الثائر كاوسن Kaoussen خلال شهر فيفرى 1918 ، فى نهاية الحرب العالمية الاولى (17) ٠

وحتى عامر بن حوه ، وبيرنجير ، وايمار ، وبروسلار ، قامـــوا برحلات الى منطقة التوارق ، ووضعوا دراسات عنها متنوعة ٠ فعامر بن حوه الذى كان عضوا فى رحلة فلاتر الثانية ، وضع دراسة عن الرحلة منذ اعدادها وسفرها الى تحطيمها على يـــد التوارق ، وشرح كيف نجا هو وعاد سالما (18) ٠

وبيرنجر أورد ثلاثة رسائل عن الرحلة اثنتان له ٠ واحدة من اينيفل : Inifel يوم 17 ديسمبر 1880 ، والثانية من ايقيرى : Eguéré يوم 26 جانفى 1881 ٠ أما الرسالة الثالثة فلفلاتر نفسه قائد البعثة ، أورد فيها تفاصيل جديدة عنها (19) ٠

أما ايمار فقد اهتم بدراسة التوارق من نواحى عديدة ، وبالاستكشافات الاولى التى وجهت الى بلادهم (20) ٠ وهو ما فعله الضابط أردايو الذى توسع فى دراسة أوضاع التوارق ، والحملات الاستكشافية الى بلادهم من عام 1854 الى 1910 والتنظيمات الاجتماعية ، وأوضاع واحة جانيت ، وأهميتها فى التجارة والنقل الصحراوى (21) ٠

واعتنى بروسلار برحلتى فلاتر ، وكان عضوا فى الاولى ، فتحدث عن التوغل الى السودان للاحتلال ، وشرح مشروع الخـط الحديدى الذي سيربط الجـزائر بالسودان والسينيغال ، كما شرح الالفاظ العربية والبربرية المستعملة (22) ٠

وتناول كل من موريس بن حازيرة ، والضابط بيسى ، وبيتريكس ، وبيسويل ، منطقة الهقار ، والتوارق ، بالدراسة والتحليل ، من مختلف الجوانب ، فتحـــدث

(17) La pacification du Sahara (Bul. Com. A.F. 1918) p. 142.
(18) Ameur Ben Haoua : Documents inédits sur la deuxième mission Flatters. Récit d'Ameur Ben Haoua. Traduit et annoté par A. Cause (Mars 1894) (Blida, Imp. A. Mauguin 1894) 3 p.
(19) Beringer et Flatters : Mission du colonel Flatters dans le Sahara central (Bul. Soc. G. Paris, 1881) T. I, p. 250 - 257.
(20) Aymard (capitaine) : Les Touareg (Paris, Hachette, 1911) 242 p.
(21) Le lieutenant Ardaillon : Notes sur les Touareg Azdjer. Aperçu sur l'oasis de Djanet et sur utilisation au point de vue du commerce transaharien (Bul. Soc. G. Alger, 1911) p. 355 - 372.
(22) Henri Brosselard - Faidherbe : Les deux missions Flatters au pays des Touareg Azdjer et Hoggar. 2me édition (Paris, Jounet, 1889) 304 p.

ابن حزيرة على كل أوضاع التوارق الذين قضى لديهم ستة أشهر ، بالهقار ، وذلك من النواحي : التاريخية ، والسياسية ، والحضارية ، والعرقيـــة ، والثقافيـــة ، والاجتماعية ، والاقتصادية (23) • واعتمد بيسى على مذكرات فورو ، ولامى ، فى دراسته التى انجزها خلال دورة بوليسية فى صيف عام 1903 ، الى بلاد التوارق أزجير، وتيخمار ، وأمقيد ، ونقوشه ، كما اعتمد معلومات بعثتى فلاتر ، ودرس جغرافيـــة تيديكلت ، وسكانها ، وسلالاتهم ، والعادات ، والتقاليد ، ومصادر الثروة ، كما درس بلاد التوارق ، ومويدير ، وأهنيت ، وأهقار ، وأدرار ، وتانزروفت • واقترح ضرورة مواصلة احتلال هذه المناطق (24) .

واعتنى بيتريكس بتسجيل ميزات وخصائص شعب التوارق ، والوسائل المستغلة لاخضاعه • واقترح أسلوبين لغزو بلاده والسيطرة عليها وهما : فرقة أوليميندن ، وفرقة أدرار ايفوراس (25) • واقتفى بيسويل أثره فى التاريخ لعادات التوارق ، وأسلوب تسلحهم وحروبهم (26) •

وفعل نفس الامر بول كاسون ، فتحدث عن طبيعة التوارق ، والاقاليم الصحراوية وتجمعات السكان (27) ، وتناول بورى التوارق بالدراسة من خلال نشاط الاب فوكولد التنصيرى بينهم (28) •

وركز رونى بوايي على أهمية احتلال عين صالح والواحات الجنوبية لصالح عملية التوغل الفرنسى الاستعمارى الى أقصى الجنوب وما وراء الهقار (29) •

---

(23) Maurice Ben Hazera : Six mois chez les Touareg du Ahaggar (Alger, T.P.A. Jourdan, 1908) XXIII + 233 p.

(24) G. Besset :
A) D'In-Salah à Tikhamar par Amguid. Une tournée de police en pays Azdjer. Rapport du lieutenant Besset (Bul. Com. A.F. 1904) supp. p. 78 87.
B) Le Tidikelt et ses banlieus (Bul. Soc. G. Alger 1904) p 642 - 685.

(25) Bétrix : La pénétration saharienne touareg (Paris, Challamel 1911) 63 p.

(26) Le capitaine Henri Bissuel : Les Touareg de l'Ouest (Alger, A. Jourdan, 1888) XIX + 210 p.

(27) Paul Carcassonne : Maures et Touareg (R.F. Mus. Mai 1902) p. 34 - 44.

(28) Le capitaine Guy Bourée : A travers le Sahara avec le Père du Foucauld (Notes de route). (Bul. Soc. G. Maroc, 1924). T. IX, p. 3 - 12.

(29) Le capitaine René Boyé : La question saharienne. Oasis de figuig, du Gorarra, du Touat, du Tidikelt. Les Touareg (Mars 1897) (Paris, G. Kleiner, 1900) 68 p.

وانصب اهتمام كوفى على دراسة فروع قبائل التوارق جنوب عين صالح (30) ، في حين ركز ديريكاقيكس على النتائج العلمية التى توصلت اليها بعثتنا : فلاتر ، وذلك من خلال رسائل الفرنسيين أنفسهم الذين شاركوا فيهما (31) ٠ وتحدث دوراند على قبائل التوارق ، وأعدادها ، وطبائعها ، والمشاكل التى تنشب بينها (32) ٠ فى حين ركز فوك على مشاكل السنوسية والتوارق معا ، وهـــو يستعرض الاوضـــاع فى الصحراء (33) ٠ وحاول أحد الضباط أن يتعرف على أسباب مقتل دول عام 1889 ، من طرف التوارق ، بين أوليف وأكابلى ، وذلك من خلال وجهة نظر بعض التوارق أنفسهم الذين كانوا أصدقاء له (34) ٠

وتحدث شودو عن الاستكشافات التى تمت فيما بين فيفرى 1905 ونوفمبر 1909 عبر عين زيزة ، وتيميساو ، وأدرار ، وتامنراست ، وايفراون ، واقاديس ، وزندر ، ومير ، وكولو ، الى تشاد ، والعودة عبر تاهو ، ونيامى ، وقاو ، على النيجر (35) ٠

واستعرض كورتى رحلاته مع أرنو ، ونتائج استعلاماتهما عام 1907 فى ادرار ايفوراس مع القبطان دينو الذى قدم اليهما من عين صالح ٠ كما تحدث عن فرسان المهارى التابعين لقافلة ڤاو ، وقافلة بامبا ، واستعرض الاوضاع المختلفة فى الاقاليم الواقعة بين ادرار ايفوراس، وآير ، والاستكشافات التى تمت عامى 1909 و 1910 (36) وبحث فيلات قصة بعثته طوال عام 1909 ما بين جانفى وديسمبر من عين صالح الى تامنراست (37) ٠

---

(30) Le capitaine Cauvet : Notice sur fraction touareg au sud d'In-Salah (Bul. Com. A.F. 1903).

(31) Lieutenant-colonel V. Derrecagaix : Exploration du Sahara. Les deux mission du lieutenant colonel Flatters (Paris, Soc. G. 1882) 143 p.

(32) A. Durand : Notes sur les Touareg et sur les populations agrigées, alliées ou voisines d'après les légendes et les renseignements recueillis dans le Tidikelt (Bul. Soc. G. Alger, 1904) p. 686 - 713.

(33) A. Fock : La situation au Sahara central. Senoussya et Touareg (Bul. Com. A.F. 1895) p. 359 - 360.

(34) E. M. : La mort de M. Douls et la façon de voyager au Sahara (Bul. Soc. G. Com. Paris, 1889 - 1890) T. XII, p. 171 - 175.

(35) R. Chudeau : D'Alger à Tombouctou par l'Ahaggar, l'Aïr et le Tchad (Bul. Soc. G. Paris, 1907) T. XV, p. 261 - 270.

(36) Lieutenant Maurice Cortier :
A) L'Adrar des Iforass (Bul. Soc. G. Paris, 1908) T. XVII, p. 265 - 280.
B) Le pays des Touareg : Icullimniden (Bul. Soc. G. Paris, 1910) T. XXI, p. 221 - 236.

(37) N. Villatte : A travers le Sahara du Tidikelt au Niger par le Ahaggar (Bul. Soc. G. Paris, 1911) T. XXIII, p. 160 - 192.

وسجل كوتنيست أحداث حملته الى الهقار فيما بين 23 مارس و 23 ماى 1902 ، واستعرض نتائج معركة تيت التى هزم فيها التوارق الهقاريون يوم 7 ماى ، وذلك من الناحية السياسية بصورة خاصة (38) ·

واهتم كل من لابيرين ، وفيليكس قوتى ، بدراسة أوضاع التوارق ، ومناطق الجنوب ، خلال رحلاتهما التى قاما بها الى هناك · فلابيرين درس المظاهر الجيولوجية ، والمورفولوجية ، من خلال رحلاته هو ورحلات نييجير ، وبيسى ، وفلاماند ، خاصة بالنسبة لاقاليم : تيديكلت ، وأدرار ، والهقار ، وأهنيت ، وتانزروفت ، وتاسيلى ، وتيفدييست ، وعين صالح (39) · وقوتى ركز على ضرورة تركيز السيطرة الفرنسية بالصحراء بعد أن قام بعدة رحلات استكشافية ، فى أدرار ايفوراس ، وواد تيلمسى من 15 جويلية الى 3 أوت 1905 · ودرس الغزو الفرنسى للتوارق ، والصحراء الغربية، وتعرض لرحلة فلاتر الثانية الفاشلة والمحطمة ، ورحلة فلاماند عام 1899 ، ولغزو عين صالح ، وأسباب معركة تيت ، وهزيمة الهقاريين فيها يوم 7 ماى 1902 (40) ·

واعتنى قيو – لوهان بالعمليات العسكرية التى قادها ضد التوارق أواخر عام 1902 ، ومطلع العام الموالى ، فشرح أسباب سيره ضدهم من أول أكتوبر الى 15 ديسمبر 1902 ، وأوضح النتائج السياسية ، والعسكرية ، والجغرافية ، التى توصل اليها (41)·

أما مونتى ، وباريزوف ، وبولهياك ، وبان ، وبولينياك ، فقد ركزوا على دراسة أوضاع التوارق ، والهقار بعد أن قاموا برحلات الى هناك · فتحدث مونتى عن تاريخ التوارق، وعاداتهم، وسلالاتهم، وتنظيماتهم، وعن الطرق والتجارة، والصناعة لديهم كما

---

(38) Lieutenant Cottenest : D'In-Salah au Hoggar (Bul. Soc. G. Alger, 1903) p. 321 - 347.
(39) Le commandant Lapirrène : Une tournée dans le sud de l'annexe du Tidikelt du 14 mars au 3 juillet 1904 (Bul. Com. A.F. 1905) supp. p. 37 - 63 et 123 - 139.
(40) E. F. Gautier :
A) Le Sahara Touareg (Bul. Soc. G. Com. Paris, 1903) T. XXV, p. 442 - 443.
B) A travers le Sahara français d'In-Ouzel au Niger (Paris, Masson, 1907) pp. 1 - 28 et 103 - 120.
C) La conquête du Sahara. Essai de psychologie (Paris, A. Colin, 1910) 261 p.
D) La conquête du Sahara Touareg (R. P. 1910) T. II, p. 542 - 560.
(41) Lieutenant Guillo - Lohan : Un contre Rezzou au Hoggar (Bul. Com. A.F. 1903) supp. p. 205 - 215.

تحدث عن أحداث تخريب وتحطيم رحلة فلاتر الثانية (42) · واهتم باريزون بالحياة والسكان ، ووسائل الاتصال ، بين عين صالح ، والهقار ، وغدامس (43) · وتحدث بولهياك على عادات التوارق وقبائلهم (44) · وشرح الضابط بان PEIN أحداث رحلته الاستعلامية الى بلاد التوارق أزجير عام 1903 ، وتحدث على حركة التشويش التى ظهرت هناك من طرف السكان ضد الغزو الفرنسي (45) ·

واهتم بولينياك باهمية صداقة التوارق أزجير لفرنسا ، ودعا الى تمتينها وتقويتها لتخدم الوجود الفرنسى واستقراره بالمنطقة (46) · واعتنى أحد الضباط برحلة القائد الحاج بيلو الى بلاد التوارق فى مطلع القرن الحالى ، لاقناع أمينوكال الهقار موسى أ ق أمايستان ، بالحضور الى عين صالح للاتصال بالسلطات الفرنسية التى تسعى لتذليل سبل توسعها الى الجنوب (47) ·

واعتنى ضابط آخر برحلة محمد الحشايشى الى السنوسى ، والتوارق ، التى سجل فيها معلومات كثيرة عن عادات وتقاليد التوارق ، وأورد أخبار طريفة عن الاساليب الدينية لدى كثير من قبائلهم (48) ·

وقام فيكتور لارقو برحلة خلال شهور : جانفى ، وفيفرى ، ومارس 1875 الى مناطق الزيبان ، وواد ريغ ، والحمادة الصخرية ، وايغرغر ، والعرق الكبير ، وغدامس، والتوارق ، وسوف ، وسجل تفصيلات واسعة عن التوارق فى رحلته الثالثة الى غدامس عامي : 1876 و 1877 (49) · واستعرض اليكسيس ميتوا قصة المفاوضات التى جرت

---

(42) Le commandant Monteil : Tombouctou et Touareg (R.P. 1er mars 1894) p. 9 - 35.
(43) A.V. Parison : La région entre ouargla et El-Goléa (Bul. Soc. G. Paris, 1876) T. XII, p. 577 - 603, 1880, T. XIX, p. 128 - 171.
(44) Lieutenant Paulhiac : Promenades lointaines. Sahara Niger, Tombouctou, Touareg (Paris, Plon, Nourrit et Cie 1905) XXII + 497 p.
(45) Le capitaine Pein : Chez les Touareg Azdjer. Une reconnaissance à Tarat (Juin - Juillet 1903) (Bul. Com. A.F. 1904) supp. pp. 73 - 78.
(46) Le colonel Prince de Polignac : Mes souvenirs sur le marquis de Morès (Paris, Imp. Hérissex, 1896) 11 p.
(47) H. S. Le voyage du caïd El-Hadj Ahmed Bilou chez les Touareg (Bul. Com. A.F. 1905) suppl. pp. 182 - 187.
(48) Mohammed El-Hachaichi : Chez les Senoussi et les Touareg. Traduit sur le manuscrit arabe inédit par Victor Sessé et Mohammed Lasram (R.P. 1901) T. IV p. 677 - 709 ; T. V, p. 408 - 422,
(49) V. Largeau : Le Sahara algérien, les déserts de l'Erg (Paris, Hachette 1881) XII + 342 p.

فى عين صالح بينه هو ولابيرين من جهة ، وبين زعماء التوارق الشماليين خلال أعوام 1903 و 1905 ، التى انتهت باستسلام التوارق وخضوعهم للسيطرة الفرنسية دون عنف ، ودون اراقة الدماء (50) حسب زعمه ·

وبعد ان استعرض كيرقانوف تفاصيل عن القوافل العسكرية الثلاثة ، التى وجهت لغزو الجنوب ، أبرز مركز سلطة التارقى ، ونفوذه الواسع فى الصحراء ، وأوضح أهمية تيديكلت للقوات الفرنسية الغازية ، ولم ينس أن يتحدث عن مسألة توات (51)· واهتم بعض الضباط بغارات الضابط الليوطنان كوتنيست : خلال أيام 9 ـ 23 ماى 1902 فى عين صالح ، وموبدير ، وتيفديست ، والهقار ، وسجل أحداث معركة تيت ضد التوارق ، واقترح مواصلة هذه الغارات حتى تفرض السيطرة الفرنسية ولو بالقوة على التوارق ، وتربط الجزائر بالسودان (52) ·

اما الطبيب ريشير ، فقد تحدث عن تاريخ التوارق منذ الازمنة البعيدة ، وعن الاوليميندن منذ الغزو الفرنسى ، واستعرض أحداث غزو تمبوكتو عام 1893 ، وبعثة توتى TOUTEE عام 1895 ، وبعثة هورس HOURST عام 1896 ، ومقاومة الاوليميندن عام 1903 ، كما تحدث عن تهدئة أدرار الهقار ، والآير ، من عام 1903 الى 1905 ، وعن تاريخ الادارة الفرنسية بالجنوب حتى عام 1914 ، وثورة الاوليميندن خلال الحرب العالمية الاولى من عام 1914 الى 1917 ، والحركة السنوسية فى الشمال الافريقى خلال نفس الفترة (53) ·

وركز شيرمير على أهمية منطقة الآير بالهقار ، وشرح الحالة السياسية للتوارق الشماليين ، معتمدا على معلومات تقارير ايروين دو بارى التى وضعها عام 1876 (54) ·

---

(50) Alexis Métois :
A) La soummission touareg du Nord (Paris, A. Challamel, 1906) 65 p.
B) Essai de transcription méthodique des noms de lieux touareg (Bul. Soc. G. Alger, 1907) p. 401 - 410, 1908 ; p. 54 - 64, 207 - 221, 381ᵉ- 410, 507 - 531, 1909 ; p. 103 - 123.

(51) Y. Kerganof : Tableau du Sahara. Un convoi au Tidikelt (R.G. 1904) T. LIV p. 54 - 60.

(52) R.C. Le raid du lieutenant Cottenest (Q. Dipl. Col. 1902) T. XIV, p. 102 - 107.

(53) Dʳ A. Richer : Les Touareg du Niger (Région de Tombouctou, Gao, les Anlliminden (Paris, Larose 1914) XI + 35 p.

(54) Henri Schirmer : Le dernier rapport d'un Européen sur Ghat et les Touareg de l'Aïr (Journal de voyage d'Erwing de Bary) (Paris, Imp. National, 1899) 15 p.

وحتى الطاهر قدور بن الجيلالى الذى شارك فى حملة فورو ، ولامى ، استعرض المصاعب التى اعترضتهم مع قبائل توارق الهقار ، وأقاديس ، وزندر ، وتشاد ، حتى الى برازافيل ، فى الكونغو (55) . وتحدث تروشار على رحلات الاستكشاف ، وحملات الغزو الفرنسى للصحراء التى تمت جنوب قسنطينة ما بين عام 1899 و 1904 ، واستعرض العلاقات مع سكان ايفوراس وأزجير ، ومشاكل المياه ، وانجاز قلعة فلاتر ، والرحلة من تاسيلى الى جانيت (56) . وفعل مثله باكى فاستعرض عمليات غزو الجنوب الصحراوى من طرف القوات الفرنسية فيما بين أعوام 1899 و 1905 (57). وأورد ضابط آخر أهمية المراكز الصحراوية الفرنسية فى عملية احتلال المناطق الصحراوية ، وفى عمليات الاستكشاف . واستعرض أحداث التوارق ، ومعارك الفرق العسكرية خلال عام 1903 ، ومطلع العام الموالى . وشرح كيفية استعمال فرق المهارى (58) .

ولم تقتصر أهمية منطقة الهقار ، وشعب التوارق ، على أواخر القرن الماضى ، بل ان هذه الاهمية برزت فى مطلع هذا القرن خاصة خلال الحرب العالمية الاولى . نظرا للصراع القائم بين الدول الاستعمارية ، حول السيطرة والنفوذ فى اطار توازن القوى من جهة ، ولحيوية عناصر التوارق فى الحرب ، واستراتيجية بلادهم فى أعماق الصحراء حيث كانت الحركة السنوسية نشطة ، ودعاية الاتراك العثمانيين ضد السيطرة والمتسلط الاوروبى قائمة ، ومنتشرة .

وفى هذا الاطار تحدث أسكرى فى كتابه : الحرب فى الصحراء ، على العمليات العسكرية التى جرت فى الحدود التونسية الليبية خلال الفترة من 1914 الى سبتمبر 1915 ، وعلى حملة تاسيلى عام 1916 ، وحملة الهقار ، واير عامى 1917 و 1918 .

(55) Tahar Kaddour Ben Djilali : Mission Foureau - Lamy, récit d'un sergent indigène. Traduit de l'arabe par A. Gourdon (Bul. Soc. G. Arch. Oran, 1904) pp 17 - 41.

(56) Trouchard : Travaux et reconnaissance de pénétration saharienne exécutés dans le Sud constantinois par le cercle de Touggourt (Paris, Publication du Com. A.F. 1907) 148 p.

(57) Lieutenant Baquey : Le pénétration saharienne. Résumé historique 1899 - 1905 (Paris, Charles Lavauzelle S.D.) 63 p.

(58) Entre Alger et Tombouctou (R.P. 1904) T. III, p. 773 794.

واستعرض دور الجنرال لابيرين فى الدفاع على الصحراء بعد ان عين حاكما عليها فى 12 ... نى 1917 (59) ·

واستعرض أوقيستان بيرنار هجمات السنوسيين خلال الحرب العالمية الاولى ضد القوات الاوروبية ، وركز على ابراز نتائج ذلك على حكم الجنرال لابيرين ، واستعرض ثورة الهقار ، واعترف باخلاص زعيمهم موسى أق أماستان للادارة الفرنسية وحاول ان يحدد توقعات المستقبل بالنسبة للسيطرة الفرنسية (60) ·

وحتى حاكم المستعمرات ، أندرى بونامى ، اهتم بهذه المنطقة ، فدرس وسائل الاتصال الممكنة بين افريقيا الشمالية والسودان ، واقترح خطا يمتد من الجزائر الى تمبوكتو ، عبر الساورة ، والشاد ، الى الهقار · وخطا من أقصى جنوب تونس الى وسط افريقيا ، وخطا ثالثا له أهداف سياسية وعسكرية يمتد من المغرب الاقصى الى افريقيا الغربية الفرنسية (61) ·

وقام ج· فرانسوا باختراق الصحراء خلال شهرى أبريل ، وماى 1917 ، عبر تشاد ، وبنى عباس ، وتيميمون ، والهقار ، وأدرار ايفوراس ، وكيدال ، وبامبا · وتحدث عن الشرطة الصحراوية ، ومشروع طريق برى للسيارات بين الجزائر وافريقيا الغربية الفرنسية (62) ·

واهتم الدكتور بول فيرمال بملاحظات الضابط دوكلو ، التى سجلها فى جريدة الطريق اليومية خلال اقامته بالسودان الاوسط والشرقى من 1913 ، الى ان قتل فى معركة عين الحجاج 1917 ، وأورد ملاحظات عن التوارق (63) · وأدخل كابانى منطقة الهقار ، فى دائرة مشروعه الكبير لمد خط السكة الحديدية من الجزائر الى بوسعادة ، وورقلة · ثم يفرع الى فرعين : واحد الى تونس ، وطرابلس ، والآخر الى

(59) Askri : La guerre au désert. Le général Laperrine et la défence du Sahara (Cor. 1920) T. CCLXXIX, pp 1106 - 1115.
(60) Augustin Bernard : Le Sahara français pendant la guerre (Bul. Com. A.F. 1920) suppl. p. 3 - 9.
(61) André Bonamy : Les deux rives du Sahara (Paris, E. Larose 1924) 204 p.
(62) G. François : Les mission Bonamy à travers le Sahara (Bul. Com. A.F. 1918) p. 211 - 215.
(63) Paul Vermal : Au Sahara pendant la guerre européenne. Correspondances et notes publiées par Augustin Bernard (Paris, E. Larose 1926) 223 p.

عين صالح ، وجبال الهقار ، وتمبوكتو • وحدد الشروط الضرورية لانجازه ماليـا ، واداريا ، وتنظيميا ، كما حدد ضمانات الحكومة له (64) •

وفعل مثله دو بورتي ، ودرس مناطق : القليعة ، وقورارة ، وتوات ، وتيديكلت ، وبلاد التوارق الشرقية ، وحاول أن يتعرف على السكان ، والارض ، والانتاج ، والموارد المائية ، ودرس مشروع السكة الحديدية من بسكرة الى تمبوكتو (65) •

واهتم لحاش بمصادر المياه الجوفية فى الصحراء ، وتحدث عن نتائج أبحاث كتيبة الضابط بوجا PUJAT حولها فى تيماسينين خلال شهور جانفى الى ماى 1899 (66) • بينما اهتم هاردت باختراق الصحراء بواسطة السيارة من تقرت الى تمبوكتو عبـر عين صالح ، والهقار ، وتانزروفت ، والهضاب الرعوية السودانية (67) • وحـاول هانوتو أن يضع قواعد نحو للغة تاماشك ، والبوشار ، والتوارق (68) ، كما حاول كل من الجنرال فيلبير ، وجورج رولاند ، أن يدرسا مشاكـل الصحـراء ، ومسألـة التوارق (69) •

وفى الاخير تأتى تقارير الحاكم العام شارل جونار ، والحكومة العامة حول كل جوانب جنوب الجزائر وأقاصى الصحراء ، التى عرفت باسم المناطـق العسكرية الجنوبية ، أو التراب العسكرى • وذلك من النواحى : السياسية ، والاقتصاديـة ،

---

(64) F. Cabanis : Grand chemin de fer d'Afrique (Paris, Librairie, novembre 1853) 32 p.
(65) Le commandant V.B. du Portier : A propos du Transaharien. Extrême-sud de l'Algérie. Le Gourara, le Touat, In-Salah, le Tidikelt, le pays des Touareg - Hoggar, l'Adrar, Tombouctou, Agadès 1881 - 1889 (Alger, Imp. Fontana, 1890) 476 p.
(66) J. Lahache :
A) Etude hydrolique sur le Sahara (R. Int. 1900) T. XIII, p. 625 - 640.
B) L'eau au Sahara (Bul. Soc. G. et Col. Marseille, 1901) T. XXV, p. 136 - 156.
(67) G.M. Haardt et L. Audouin - Dubreuil : Le Raid Citroën. La première traversée du Sahara en automobile de Touggourt à Tombouctou par l'Atlantide (Paris, Plon 1924) 307 p.
(68) Le commandant Adolphe Hanoteau : Essai de grammaire de la langue tamachek, renferment les principes du langage parlé par les Imouchar au Touareg (Paris, Imp. Impériale 1860) XXXII + 299 p.
(69) Le général Phelbert et Georges Rolland : La France en Afrique et le Transaharien. L'intérieur africain, ce que peut être encore l'Afrique française, pénétration par l'Algérie, question touareg, chemin de fer transaharien, ce qu'elle est, ce qu'elle doit être, par G. Rolland (Paris, A. Challamel, 1890) 96 p.

والمالية ، والعدلية ، والاشغال العامة ، وحركة الاستعمـــار وتقسيم المسؤوليات ، والبلديات ، والدوائر ، والمراكز (70) ٠

ثم أعمال ، وتقارير الحاكم العام ستيف باســم الحكومة العامة ، التى ضمــت فى ثلاثة اجزاء :

فى الجزء الاول تحدث دوكلو Duclos ، رئيس مصلحة شؤون الاهالى العسكريين للحكومة العامة عن الحدود ، ووصف ايميل فيليكس قوتى المظاهر الجغرافية ٠ ودرس روزى Rozis نائب المدير العام فى الحكومة العامة ، أصول وشروط التصويت عـلى قانون 24 ديسمبر 1902 ، الذى بموجبه انشئت المناطق الجنوبية العسكرية ٠

وفى الجزء الثانى درس روزى A. Rozis ، التنظيم المالى ، والادارى ، والعسكرى ، ودرس الحاكم العسكرى لمناطق الواحات ، دوكلو ، الحالة السياسية ، لمناطق الجنوب من عام 1902 الى 1922 ٠ ودرس الطبيب فولى Foley الحالة الصحية خلال أعـوام 1919 و 1921 ٠ وهو رئيس مصلحة الصحة لهذه المناطق ٠

وفى الجزء الثالث الذى صدر عام 1923 ، تم وضع بيبليوغرافية عامة للمجلدات ، والكراريس ، والقرارات ، والمجلات ، والوثائق ، والخرائط ٠ وعرضت فيه الوثائق الرسمية ، والدراسات الاقليمية ، والمحلية ، والغزو الصحراوى ، وتاريخ الحالـــة السياسية ، والعمليات العسكرية ، والتنظيم الاستعمارى ، والاشغال العامة،والنقل الصحراوى (71) ٠

---

(70) Charles Jonnart :
A) Exposé de la situation général des territoires du Sud de l'Algérie, présenté par M.C. Jonnart, gouverneur général, année 1905 (Alger, Imp. V. Heintz, 1906) 103 p.
B) Gouvernement général de l'Algérie. Conseil supérieur, discours de M. le Gouverneur (C. Jonnart) à l'ouverture de la mission ordinaire pour l'année 1907 (Alger, Imp. V. Heintz, 1907) 26 p.

(71) Gouvernement général de l'Algérie : Direction des territoires du Sud. Les territoires du Sud de l'Algérie. Exposé de leur situation, publié par ordre de M. Steg, gouverneur général de l'Algérie (Alger, Corbonel 1922) 3 vol. 248 + 549 + 320 p.

هكذا يتضح ، من العرض السابق ، أن الفرنسيين كانوا شديدى الاهتمام بمنطقة الهقار ، وشعب التوارق . وبذلوا محاولات مكثفة ، وطويلة ، للسيطرة عليهما دامت قرابة نصف قرن من الزمن ·

وكان مصدر اهتمامهم ، هو خدمة مصالح فرنسا ، ودعم الاستعمار الفرنسى فى افريقيا كلها · ولم يكن لشعب التوارق ، وكل سكان الصحراء ، أى حظ فى أى تطوير ، أو تقدم . من طرفهم · لان كل همهم ، وكل أهدافهم من وراء حملاتهم ، وغزواتهم ، واستكشافاتهم ، هو تذليل الصعوبات لقواتهم الغازية ، لتفرض سيطرتها الاستعمارية ، وتذل السكان وتهينهم ، وفتح المجال للمغامرين والمرتزقة ، ليمارسوا الجوسسة ، والتخريب ، ويستغلوا ، ويستثمروا خيرات المنطقة ، وامكانياتها الاقتصادية والبشرية ·

ورغم العزلة الخانقة ، والفاقة ،والحرمان ، وقساوة الطبيعة ووعورتها ، وانعدام الامكانيات والوسائل ، فان شعب التوارق ، بالهقار ، وكل جهات الصحراء ، قاتلوا الغزاة الاستعماريين ، وقاوموهم بكل شدة ، وضراوة ، وخاضوا عددا كبيرا من الحروب والمعارك فى طول الصحراء وعرضها ، وسجلوا صفحات مشرقة فى تاريخ الصحراء والمقاومة الجزائرية · وبقوا أوفياء لوطنهم حتى تحررت الجزائر بصفة نهائية ، والى الابد ، عام 1962 ·

توضيح مختصرات الدوريات التى استعملت فى الدراسة

- Bul. Com. A.F. : Bulletin du Comité de l'Afrique française.
- Bul. Soc. G. Alger : Bulletin de la société de géographie d'Alger et de l'Afrique du Nord.
- Bul. Soc. G. Arch. Oran : Bulletin de la société de géographie et d'archéologie de la province d'Oran.
- Bul. Soc. G. Com. Paris : Bulletin de la société de géographie et commerciales de Paris.
- Bul. Soc. G. et Col. : Bulletin de la société de géographie et d'études coloniales de Marseille.
- Bul. Soc G. Maroc : Bulletin de la société de géographie du Maroc.
- Bul. Soc. G. Paris : Bulletin de la société de géographie de Paris.
- Cor. : Le correspondant.
- N. R. : Nouvelle Revue.
- Q. Dipl. Col. : Questions diplômatiques et coloniales.
- R. G. : Revue de géographie.
- R. Fr. Mus. : Revue franco-musulmane et saharienne.
- R. P. : Revue de Paris.

المحتوى التاريخي للرسـوم الصخرية·

المعطيـات الجغرافية والمنـاخة

محمـد الصغير غانـم

استـاذ التاريـخ

تجمع الدراسات التى تناولت موضـوع الرسوم الصخرية بالصحراء الجزائرية بان منطقة التاسيلى وجبال الهجار كانت منذ القديم تمثل ملتقى حضارات انسانية· فقد خول لهذه المنطقة موقعها الاستراتيجى ان تلعب دورا هاما ، بحيث انها كانت تتوسط مواقع المراكـز الحضارية الموجودة حينذاك ·

فالمسافة التى تفصلها عن مصر العليا تقارب تلـك التى تفصلها عن خليج الرت وشمال بلاد المغـرب · ونفس المسافة تقريبا تفصلها عن أعالى نهر النيجر والصحراء الغربية وجنوب موريطانيا·

ولم تكن الصحراء منطقة جافة كما هى الآن،بل كانت تتمتع برطوبة كافية تجعل حياة الحيوانات الاستوائية سهلة للغاية ، واستمر الامر على ذلك تدريجيا حتى حوالى الالف الثالث ق·م· حيث ظهرت الصحراء بطبيعتها القريبة مما هى عليه الآن،ثم بدأ

سكانها يتجمعون فى واحات منتشرة هنا وهناك ، والبعض الآخر منهم هاجر المنطقة نهائيا متتبعا مصادر شرايين الحياة التى تتلخص فى وجود المياه والكلأ (1) ·

ومن جهة أخرى يشير الباحثون الجيولوجيون بانه خلال فترة الرطوبة هذه كانت تتخلل منطقة الصحراء شطوط وبحيرات مغلقة موزعة فى بعض المناطق الصحراوية تغذيها وديان تنحدر من مرتفعات الهقار والتاسيلى ، والتبستى · وقد احتلت مكان هذه الشطوط والبحيرات اليوم العروق والاحواض الرملية · ومن بين الوديان التى تغذى اماكن تجمع المياه المشار اليها وادى تفاساسيت Taffassasset الذى كان ينحدر من مرتفعات التاسيلى وشرقى الهجار، ثم يواصل سيره بعد ذلك نحو الجنوب الغربى حتى أعالى نهر النيجر · وبالعكس من ذلك كان وادى إغارغار ينطلق هو الآخر من مرتفعات الهجار، منتجها نحو الشمال الغربى، ليصب بعد ذلك بالقرب من شط ملغيغ بالحدود التونسية الجزائرية الحالية (2) · وهناك أدلة أخرى تثبت وجود معالم المياه المشار اليها تتلخص فى وجود عظام الحيوانات الاستوائية المتحجرة التى لا تعيش الا على أطراف الانهار والبحيرات وكذلك الاسماك ، وكل هذه الاشياء عثر عليها فى موقع أمكنى Amekni وتبهودين بغربى الهجار بالصحراء الجزائرية (3) · ومن دراسة بقية رواسب الكائنات العضوية أثبتت الدراسات الاثرية بان مناخ الصحراء خلال الالف السابع ق·م· كان مرتفع الرطوبة مما ساعد على وجود غابات تغطى رؤوس المرتفعات الجبلية مثل الهجار والتاسيلى والتبستى ، واستمر الامر على ذلك حتى بداية الالف الثالث ق·م· المرحلة الزمنية التى دخلت فيها الصحراء فى فترة الجفاف التدريجية ·

وبصفة عامة نستطيع القول بان الصحراء كانت قد مرت بمرحلتين هامتين تتلاءم مع ظروف الرطوبة والجفاف ، وهما العصر الحجرى القديم الاسفل وبالخصوص المرحلة

---

1) G. CAMPS, *Les civilisations préhistoriques de l'Afrique du Nord et du Sahara,* Paris 1974, p. 221.

2) Gautier, *Le Sahara,* Payot, Paris 1928, p. 62.

3) G. CAMPS, *Les civilisations préhistoriques de l'Afrique du Nord et du Sahara,* Paris 1974, p. 221.

الاشولية المتطورة منه ، ثم العصر الحجرى الحديث ، اما العصران الحجرى القديم الاوسط والاعلى فان بقاياهما منعدمة فى المنطقة (4) ٠ ففى الوقت الذى كانت تسود فيه عصور جليدية فى منطقة أوروبا أرغمت السكان عن المكوث فى الكهوف ، ودامت على ذلك حتى حوالى الالف الخامس ق٠م٠ فى هذا الوقت صادف ان ساد منطقة الصحراء جو مطير أطال عمر العصر الحجرى الحديث الذى كانت البشرية الافريقية العائدة اليه عبارة عن صيادين ورعاة وفرسان تجوب المنطقة (5) ٠

وعلى هذا الاساس يذهب بعض الباحثين الى ان نهاية عصور ما قبل التاريخ فى الصحراء كانت ذات طابع سىء على المنطقة بأكملها،حيث حل الجفاف محل نزول الامطار وقلت منابع المياه ، وبذلك استحالت الحياة فى ربوعها فيما عدا فى بعض الواحات التى استقطبت سكان المنطقة ، بينما بالعكس من ذلك بدأت المناطق الشمالية المحاذية للبحر الابيض المتوسط تستعد للدخول فى الفترة التاريخية،وبذلك كانت منطقة استقطاب سكانى ليس فقط بالنسبة لاقوام البحر الابيض المتوسط،بل وأيضا للاقوام الصحراوية التى أرغمتهما ظروف الطبيعة على مغادرة مسرحها الاول باتجاه الشمال (6)٠

تقييم الرسوم الصخرية الصحراوية :

ليس من السهل تقييم الرسوم الصخرية واعطائها المحتوى الذى تستحقه،وذلك لان الخيال والتكهن فى تفاسير مواضيع هذه الرسوم يلعبان دورا هاما ، والذى لا شك فيه هو ان هذه الرسوم والنقوش تعبران بصدق عن مظاهر انتاج فنانى عصور ما قبل التاريخ المغربية الذين سجلوا لنا مظاهر الحياة اليومية كتلك المجتمعات التى كانت تضمهم بين صفوفها ٠ كما ان الاسلوب الذى عولجت به مثل هذه المواضيع التى لا زالت آثارها ماثلة على واجهات الكهوف والصخور والتقنية التى استعملت فيها يدلان بصدق على ان الفنان الذى انتج هذه الرسوم والنقوش لم يكن هاويا فحسب بل كان متخصصا يتقن عمله أحسن اتقان ٠

4) مجلة البحث العلمى ، المركز الجامعى للبحث العلمى ، الرباط العدد الثامن ، الرباط 1966 ، ص 42 ٠
5) نفس المصدر السابق ، ص 43 ٠
6) G. CAMPS, *Monuments et rites funéraires protohistoriques,* Paris 1961, p. 206.

فقد بدأت تظهر للوجود فكرة اسبقية الرسوم الصخرية المغربية منذ اكتشاف الرسوم الصخرية التى عثر عليها فى الجنوب الوهرانى · وقد ترك البت فى هـذا الموضوع الى نتائج الاشغال الفنية التى كان بصدد اعدادها حينذاك كل من فلاماند (Flamand) وبروى (Breuil) ، وغيرهما مثل روسو (Russo) وجلود (Joleaud) (7) ·

اما فوفرى (Vaufrey) فقد أكد بقوله بان أقدم هذه الرسوم الصخرية سوف لن يتجاوز فترة النيولتيكى قدما (8) · وقد اعتمد فى ذلك على البقايا الاثرية الحجرية التى عثر عليها بالقرب من مواقع الرسوم الصخرية ، والتى لم يوجد من بينها ما يشير الى فترة الباليولتيكى الاعلى بل كلها كانت صناعة نيوليتيكية متأثــرة بالتقاليـد القفصيــة ·

ومن جهته،قام هنرى لهوت (H. Lhote) بعدة مجسات مختلفة فى مناطق التاسيلى اعتقد بعدها بان الصناعة الحجرية التى كانت سائدة فى المنطقة هى تلك العائدة الى فترة النيولتيكى (9) ·

وخلاصة لما ذكرنا بقى هناك رأيان يسودان هذا الموضوع :

أولهما مـا استخلصه الباحث جلــود (Joleaud) سنة 1933 ومفـاده ان معظـم الرسوم الصخرية قد يكون معاصرا لفترة النيولتيكى المتوغلة فى القدم والتى حددها بحوالى الالف التاسعة ق·م· (10) ·

أما الرأى الثانى فهو الذى أورده فوفرى (Vaufrey) والذى يعدل التاريخ السابق الذكر فينزل به الى حوالى الالف الخامس ق·م·

7) Abbé Henri Breuil, *Les roches peintes du Tassili - N - Ajjer,* Extrait des Actes du II[e] Congrès Panafricain de Préhistoire, Alger, 1958, p. 67.

8) مصطلح تاريخى ، المقصود به العصر الحجرى الحديث ؛
R. Vaufrey, *Préhistoire de l'Afrique,* T. I, p. 114.

9) Henri Lhote, *Vers d'autres Tassili,* Paris 1976, p. 108.

10) L. Joleaud, *Gravures rupestres et rite de l'eau en Afrique du Nord,* Journal de la Société des Africanistes, T. 3, 1933, pp. 197-204.

وسوف لن ننهى هذه الآراء دون ان نشير الى ما أورده الباحث غردون تشايلد (G. Childe) سنة 1936 ، والذى قارن فيه الفن الصحراوى بالفن المصرى السابق لعصر الاسرات • فقد أكد هذا الباحث بان الفنان النيولتيكى المصرى كان أقل مهارة من نظيره الصحراوى المغربى والاسبانى ، واستخلص بعد ذلك الى ان الحضارة المغربية الصحراوية هى أسبق من الحضارة المصرية • وقد شاركه فى هذا الرأى فيما بعد أ• بروى (Abbé Breuil) (11) •

والجدير بالذكر ان المنطقة الشرقية من مرتفعات التاسيلى كانت ولا زالت تمثل أغنى منطقة فى الرسوم الصخرية الصحراوية ليس فقط من حيث الرسوم ، وانما أيضا من حيث المحتوى الفنى • ويمكن ان يكون لذلك سببا يتلخص فى الموقع الجغرافى ، ووقوعها على الطريق الدولى الذى كانت تسلكه القوافل فيما بعد للوصول الى أعالى نهر النيجر وبلاد السنيغال •

وعلى هذا الاساس،ووفقا للرسوم التى وجدت بهذه السلسلة الجبلية،فيبدو أنه توالى على منطقة التاسيلى كل من جماعات الصيادين ، والبقارة،والاكيديين (الذين استعملت فى عهدهم العربات) ثم الجمالة فيما بعد • ويمكن للدارس ان يعثر فى رسوم التاسيلى على كامل التأثيرات التى وجدت في بلاد المغرب،سواء المحلية منها أو الاجنبية، مثل تلك التى وردت الى المنطقة عن طريق ليبيا ومصر ، وكذلك تلك القادمة من أوروبا والتى مصدرها غزوة شعوب البحر (12) •

وهكذا نستطيع القول بان منطقة الصحراء الوسطى الجزائرية كانت تؤثر وتتأثر بالتيارات التى تحيط بها سواء تلك القادمة من آسيا عن طريق مصر ، أو من بلاد الاغريق عن طريق جنوب غرب أوروبا •

ففى كلتا الحالتين كان للتاسليين شخصيتهم المميزة كما يتجلى ذلك من خلال الالواح الفنية المعبرة التى تروى لنا قصة امجادهم الخالدة •

---

11) Abbé Breuil, *Roches peintes du Tassili - N - Ajjar,* Extrait des Actes du II[e] Congrès Panafricain de Préhistoire, Alger 1952, p. 68.

12) بادل داقدسن ، افريقيا تحت أضواء جديدة ، ترجمة جمال م• أحمد ، دار الثقافة بيروت ، بلا تاريخ ، ص 50 •

أهم المواضيع التى تناولتها الرسوم الصخرية :

قد يكون من المبالغة ان نحصر المواضيع التى تناولتها الرسوم الصخرية فى موضوع مثل هذا ، انما حاولنا بقدر الامكان ان نقدم صورة تقريبية اعتمادا على ما قدمته لنا الكتابات التى سبقتنا والتى استطعنا الاطلاع عنها • لقد اجمعت معظم هذه المراجع على ان للرسوم الصخرية عدة محاور اساسية تتمشى ونوعية الحياة التى كان يتأثر بها الفنان •

وعلى هذا الاساس وزعت الرسوم الصخرية فى شمال افريقيا على الشكل التالى :

1 ـ منطقة شمال بلاد المغرب وتضم كلا من تونس والجزائر والمغرب الاقصى والصحراء الغربية مع التركيز على الجنوب الوهرانى والاطلس الصحراوى •

2 ـ منطقة الصحراء الجزائرية الليبية وتضم جبال الهجار والتاسيلى ثم جبال تبستى ومنطقة فزان بليبيا •

3 ـ منطقة غربى ليبيا ومصر

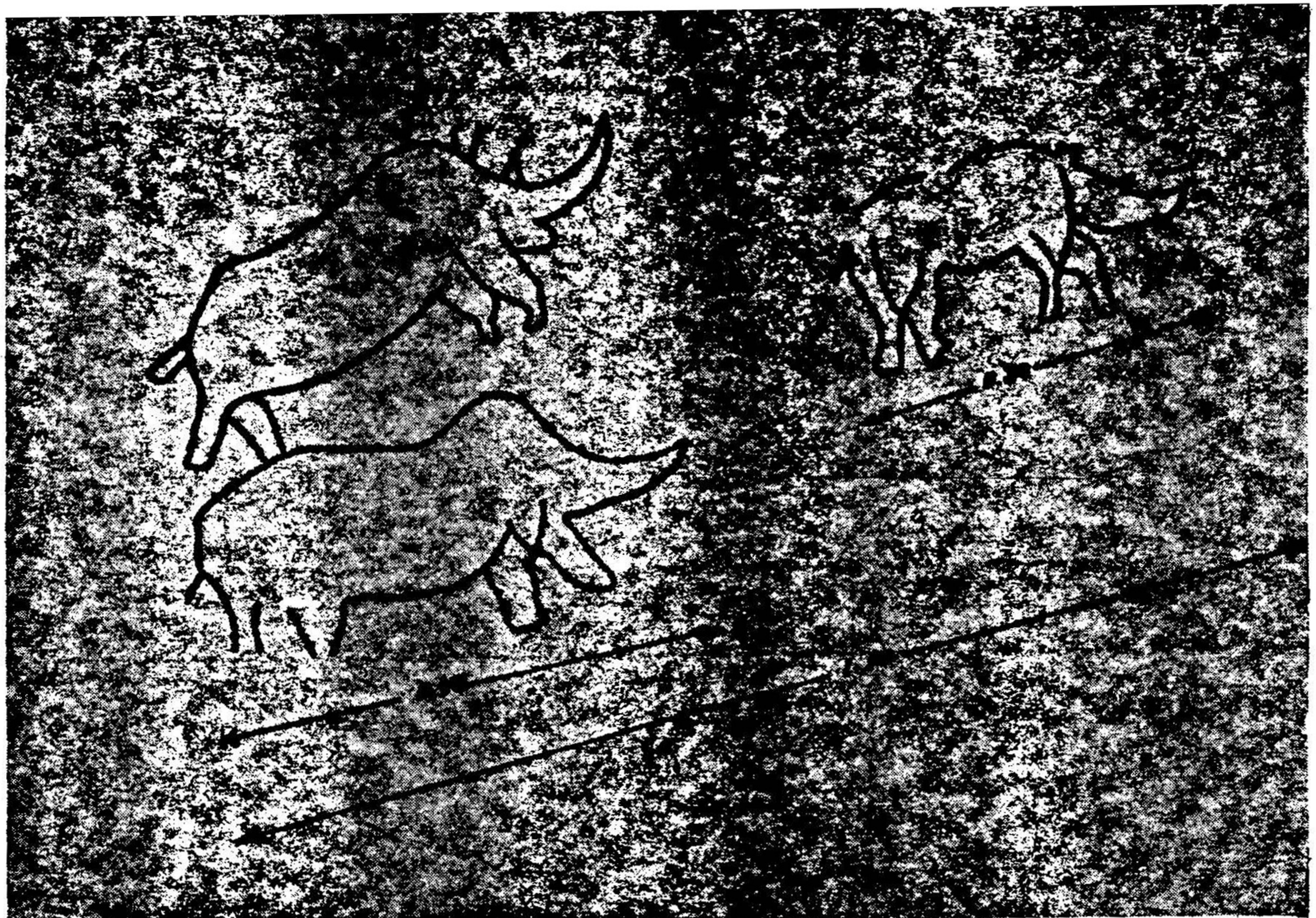
هذا من حيث التوزيع ، أما عن محتوى هذه الرسوم فقد رتبت هى الاخرى كرونولوجيا حسب التقريب على الشكل التالى :

أقوام الصيادين ، البقارة ، الاكيديين •

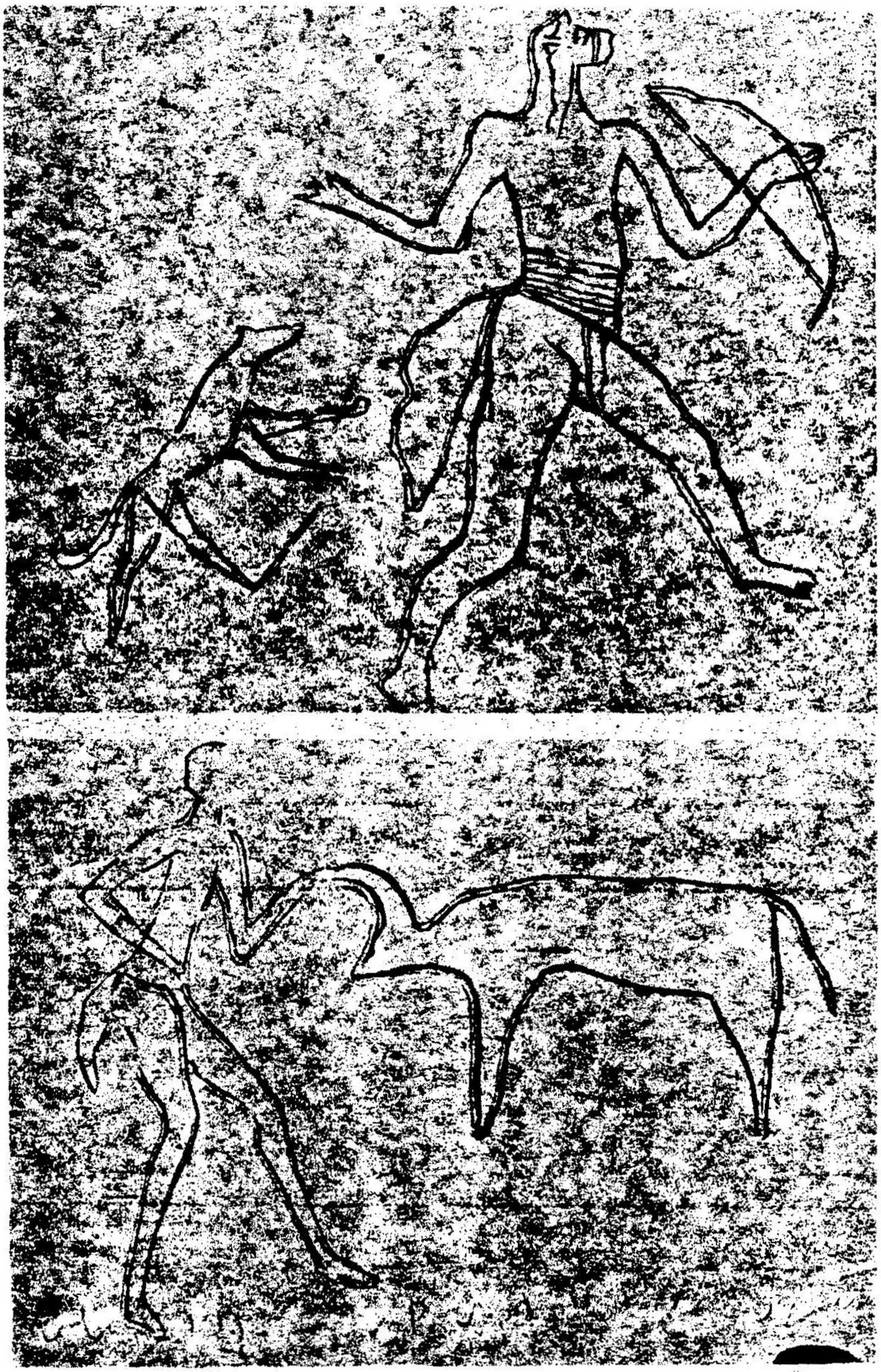
الصيادون : يسمى البعض هؤلاء بـ « الاقوام ذوى الرؤوس المستديرة » ، ذلك لان رسومهم كانت توحى بذلك (13) •

ومن بين الحيوانات التى يصطادها هؤلاء الاقوام، والتى سادت فى عهدهم نشير الى الفيل الذى عرف بالماموت، وهو حيوان منقرض، وكذلك الزرافة، وافراس النهر ، ووحيد القرن ، والجاموس ، وغالبا ما توجد صور الاشخاص المصاحب لهذه الصور فى شكلها الطبيعى عارية من كل ثياب مسلحة بالعصى والسهام الحجرية • والملاحظ ان صور هذه الفترة كانت دقيقة جدا وتميل الى الأسلوب الطبيعى •

13) G. CAMPS, *Les civilisations préhistoriques de l'Afrique du Nord et du Sahara,* Paris 1974, p. 258.



رسوم لوحيد القرن ، عثر عليها فى وادى جيرات بالتاسيلى



مشهد صيد من وادى جيرات بالتاسيلى

وقد استعمل الفنان فى رسمها اللون الاحمر المأخوذ من المغرة ، كذلــك رسمها بنقوش غائرة على واجهات الصخور (14) ·

والجدير بالذكر ان فترات الصيادين هذه كانت على ما يبدو قد استغرقت فترة طويلة من الزمن، بحيث امتدت من الباليولتيكى الاسفل حتى النيولتيكى ، وقد قدرت بداية فترة هذا الاخير فى الصحراء فيما بين الالف السابعة والخامسة ق·م· (15) · والشيء الذى يمكن ملاحظته هنا ان أنواع الحيوان المشار اليها لا تستطيع العيش الا فى مناطق ذات مناخ رطب وغابات غنية مما يعطينا الدليل على ان منطقة الصحراء فى تلك الفترة كانت تشبه مناطق الصفانا الاستوائية الحالية (16) ·

البقارة : يلى الاقوام الاولى فى الترتيب ما عرف بالبقارة نسبة الى الحيوانات التى توفرت رسومها فى عهدهم والتى على ما يبدو انها كانت تكوّن العمود الفقرى لهــذه الجماعات البشرية التى عاشت بهضاب التاسيلى والهقار والتبستى ، وحسب ه· لهوت (H. Lhote) فان استئناس الحيوانات فى منطقة الصحراء يعود الى هذه الفترة ، وهــى تعد من أغزر واجمل الرسوم التى وجدت فى المنطقة · وقد امتد توزيع الابقار من منطقة الهقار بالصحراء غربا حتى وادى النيل شرقا ، وهى تعكس حضارة رعويــة نيوليتيكية مارس أقوامها الصيد والرعى معا (17) · ويعتقد الباحثــون بان الذين استأنسوا الحيوانـات كانــوا ينتمون الى الجنس الحــامى بالاضـافة الى الاقــوام الافريقية الزنجية · ويستفاد من صور النساء التى وجدت رسومهن بوادى أمــزار (Oued Amazzar)، وايدو ـ تيسوكال (Iddo Tissoukol) بالتاسيلى بان هذه الرسوم كانت قد رسمت بلون أسود غامق وقد رتبن شعرهن بطريقة خاصة ، ونوعية هذا الاخير تـدل على انهن ينتمين الى جنس البحر الابيض المتوسط ·

14) مجلــة البحث العلمى ، المركز الجامعى للبحث العلمى ، العــدد الثامن ، الرباط 1966 ، ص 44 ·

15) Encyclopédie illustrée de l'Homme préhistorique, Prague (Gründ) 1975, p. 488.

16) Stéphane Gsell, *Histoire ancienne de l'Afrique du Nord,* T. I, pp. 100-122.

17) G. B. M. Flamand, *Les pierres écrites du Nord de l'Afrique,* Extrait des Comptes-Rendus du Congrès inter d'Anthro. et d'Archéo. Préhistoriques XII^{e} session, Paris 1900, p. 266-267

أما رسوم الرجال فقد كانت تبدو فارعة القامة بالاضافة الى ذقونهم الطويلة المنسدلة • وغالبا ما يظهر هؤلاء الرجال مسلحين برماح وعصى واضعين على رؤوسهم قبعة من الريش الطويل ومرتدين للباس قصير • وفى نفس الرسوم تظهر مجموعة أخرى من الرجال تحمل أقواسا صغيرة تعلوا رؤوسهم قرون البقر وتلف اجسامهم ثياب طويلة •

وهناك رسوم تعد أحدث من تلك المشار اليها سابقا تتلخص فى صورة ثورين يجران عربة ذات عجلتين ، وغالب الظن انها عائدة الى الرسوم المخصصة الى العربات الصحراوية والتى تعود الى منتصف الالف الثانية ق•م• (18) •

الاكيديون أو سائقو العربات :

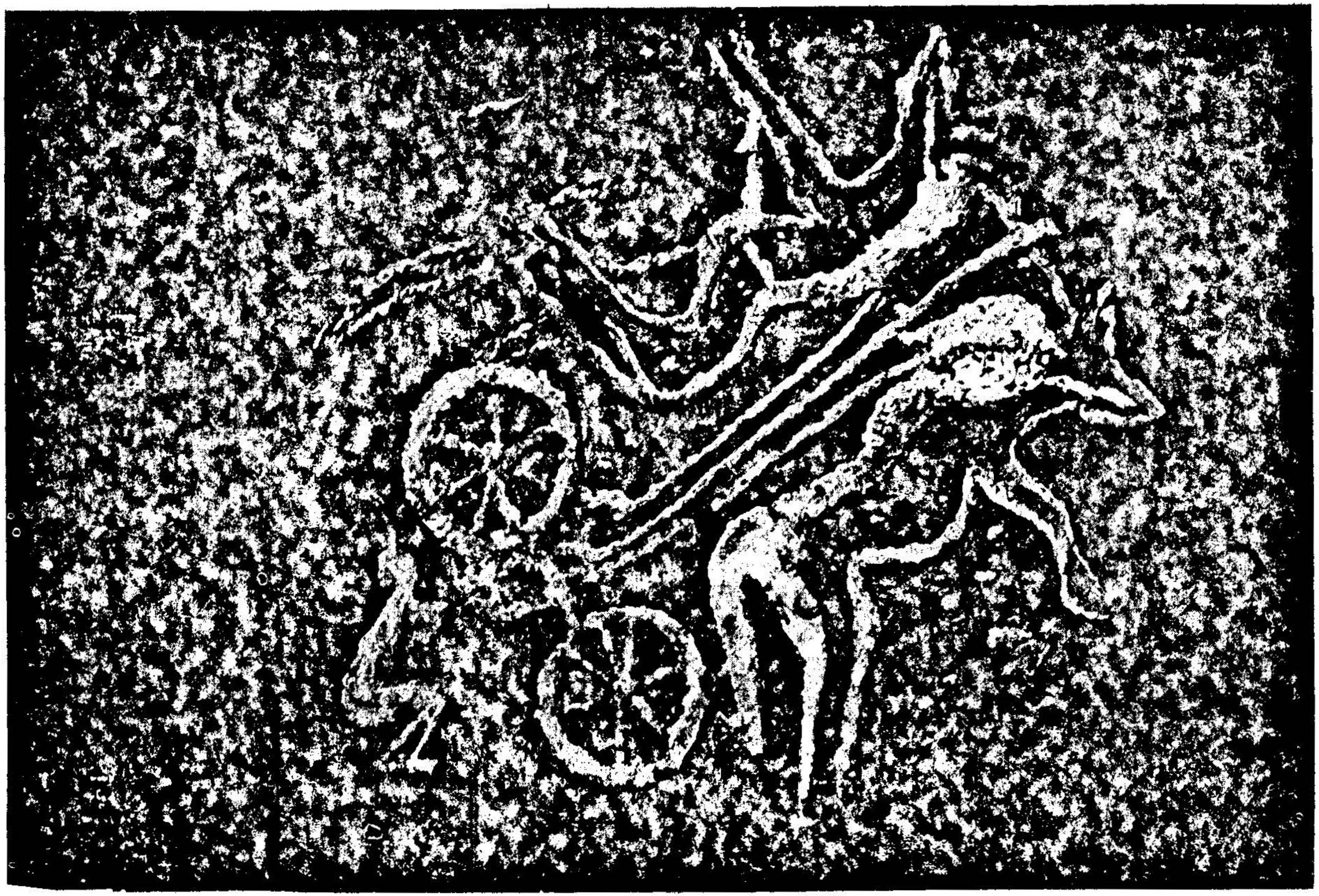
تنتهى مرحلة البقارة فى الصحراء بانتهاء وفرة الاعشاب،وميول المنطقة الصحراوية الى الجفاف،وانكماش شريط الحياة نحو الشمال والجنوب ، وتبعا لذلك بدأ سكان الصحراء يتجهون نحو الشمال والجنوب فى شكل هجرات متوالية،متتبعين مصادر المياه والكلأ لقطعانهم • غير ان هذا لا يعنى بان البقارة فى الصحراء كانوا قد عوضوا بالاكيديين الذين أدخلوا الحصان الى المنطقة ، بل على العكس من ذلك فقد عاشت الجماعتان معا لفترة طويلة •

ويلاحظ الباحثون بان الحصان كان قد أدخل الى منطقة الصحراء بعد وقت قصير من اجتياح الهكسوس الى مصر (19) • وقد وجدت رسوم الحصان موزعة فى كامل المنطقة الصحراوية الممتدة من فزان شرقا حتى موريطانيا غربا • ولم يستعمل الحصان فى بداية الامر للحمل والركوب،بل كانت مهمته لا تتجاوز جر العربات (20) ، وكانت عجلات هذه الاخيرة قد صنعت من المعادن مما يدل على ان سكان المغرب لا سيما الصحراء

18) G. CAMPS, *Les civilisations préhistoriques de l'Afrique du Nord et du Sahara,* Paris 1974, p. 258.

19) مصطفى عبد العليم ، تاريخ ليبيا القديم ، القاهرة 1966 ، ص 31 •

20) شارل أندرى جولىان ، تاريخ افريقيا الشمالية ، تعريب بشير بن سلامه ، محمد مزالى ، الدار التونسية للطباعة 1969 ، ص 72 •



عربة صحراوية ذات عجلتين ، عثر عليها مرسومة
فى وادى جيرات بالتاسيلى – الجزائر –



عربة صحراوية بسائق ، عثر عليها مرسومة بوادى جيرات بالتاسيلى

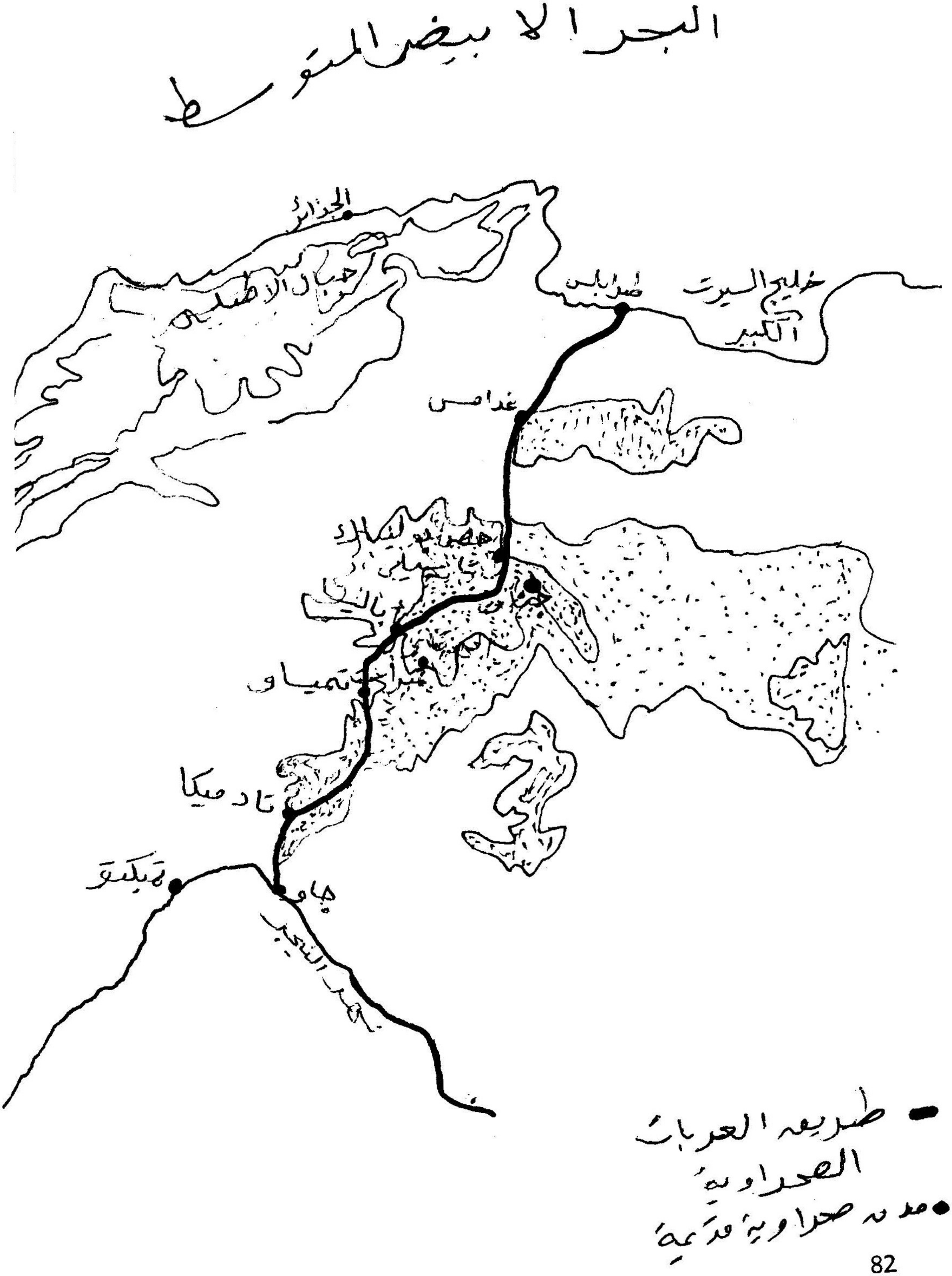
كانوا قد عرفوا استعمال المعادن قبل مجىء الفنيقيين الى شمال بلاد المغرب · ان صغر حجم العربات الصحراوية ، كما يبدو من رسومها ، جعل الباحثين يستبعدون فكرة استعمال هذه العربات فى نقل البضائع ، وقد يذهب الظن الى انها كانت مخصصة لشخص واحد أو اثنين فقط ·

ومن جهة أخرى فان وجود صور هذه العربات فى مناطق صعبة المسالك يدل على أن استعمالها كان مقتصرا على الجانب الحربى ، ولم تشارك فى الحياة اليومية الاقتصادية قبل تلك التى وجدت رسومها فى مصر وبلاد ما بين النهرين · وتوضح رسوم عربات تامجرت (Tamadjert) بالتاسيلي،بان هذه الاخيرة كانت بسيطة للغاية ، وفى الحقيقة فان افتراض استعمالها للصيد أو الحرب لا زال يحتاج الى شواهد مؤيدة (21) ·

يتجلى لنا من خلال هذه الدراسة بان فن الرسوم الصخرية هو عبارة عن متحف طبيعى يستطيع الباحث من خلال تفحصه لما يحتويه ان يتعرف على التقنية التى استعان بها الفنان القديم فى رسم ونحت صوره تلك · كذلك يمكن ان يتعرف أيضا على نوعية الحياة اليومية التى مارسها الانسان القديم فى المنطقة والتطور الذى تابعه · غير أنه يلاحظ بانه ليس بالامكان ضبط محتوياتها التاريخية فى الوقت الحالى ، وذلك لقصر المعطيات الاثرية الموجودة فى المنطقة والتى يمكن ان تعطى نتائجها المثمرة مع تواصل المجهودات المنظمة وتوجيهها وفقا للنهضة الشاملة التى تشهدها بلادنا فى الوقت الحاضر ·

---

21) Henri Lhote, *Les gravures rupestres de l'Oued Djerat* (Tassili-N-Ajjer), T. II, Alger 1976, p. 797.


البحر الابيض المتوسط
الجزائر
جبال الاطلس
طرابلس
خليج السرت الكبير
غدامس
تاد ميكا
تمبكتو
جاو
طريق العربات الصحراوية
مدينة صحراوية قديمة

الهقـــار والمـرحلة الحـاسمة

د. الجيـلالى صـارى

معهد علـوم الارض
جامعة العلوم والتكنولوجيا
- الجزائر -

نظرا الى موقعه الجغرافى والظروف الطبيعية القاسية التى تسيطر عليه ، ونظرا كذلك الى ثقل ماضيه البعيد والحديث خاصة ، فان الهقار يعد من افقر المناطق بالجزائر وباقى الصحراء الكبرى بعد المناطق المجاورة له غربا مثل التانزوف،اذ أن معظـم السكان لا زالوا محرومين مـن التجهيزات والخدمات العامة الضرورية ، ومما يزيد فى اشتداد وتعقيد المشاكل أيضا هى طول المسافات عبـر اقليم واسع الارجاء ، وصعوبة شق المسالك والطرقات ، زيادة عن تشتت العائلات .

ولكن بالرغم من ذلك،فان مرتفعات الهقار لا تخلو من طاقات كالثروات الباطنيـه والسياحة ، وعملا قبل كل شيء بسياسة التوازن الجهوى مهما كان الثمن والتضحيات ،

وعملا كذلك بسياسة الاخوة والتعاون مع الشعوب المجاورة والصديقة ، فانه قد بذلت مجهودات جبارة خلال السنوات الاخيرة لتوفير أهم شرط لتحقيق تلك المبادىء السامية الا وهو شق الطريق الصحراوى الذى أصبح يربط مدينة تامنغست بباقى الوطن منذ 19 جوان 1978 ، كما أنه تبذل أيضا مجهودات أخرى فى ميادين مختلفة تهدف كلها الى فك عزلة المنطقة وتأهبها للخروج من عالم التخلف والظلام الحالك ·

وغاية هذا العرض هى ابراز المظهرين ، مظهر التخلف ، وتأهب الهقار للتحليق وما يتوقع فى الامد القريب ·

1 ـ مظاهر التخلف واشتدادها حديثا :

ان مظاهر التخلف بالهقار كثيرة ولا تتنج عن الموقع الجغرافى وباقى العوامل الطبيعية فحسب بل ترجع أيضا الى العوامل التاريخية ، وكذا بعض المميزات الديموغرافية الحديثة ·

1) المظاهر الديموغرافية للتطور :

ان نتائج الاحصاء الاخير تؤكد التطور الحديث (الجدول 1) أى ظاهرة طرد السكان وتجمعهم ببعض المراكز ويتجلى الطرد بوضوح فى كل من بلديتى جنات واليزى اذ أن

1 ـ تطور السكان 1966 ـ 1977 (1)

البلديات	1966	1977	1966 ـ 1977 عدد	%
تامنغست	16.298	23.247	6949	42
جنات	5841	5319	522 ـ	9
عين امناس		4181	(1)	
اليزى	4000	4632	632	15
برج عمر ادريس	1080	1889	809	74
المجموع	27219	39.268	12049	44

(1) لا نستطيع ان نحدد الزيادة بالضبط نظرا الى عدم وجود احصائيات سنة 1966 ، ومهما يكن من أمر فان زيادة سكان عين امناس ترجع الى المنطقة الصناعية (البترول) ·

المصدر : مصلحة احصاء السكان بالعاصمة ، وزارة التخطيط والاستصلاح المجالى ·

1) اعتبرنا البلديات الموجودة بالهقار وهضبة التاسلى فقط ، أى تقريبا الحدود الطبيعية ، واخرجنا منها اقليم التيدكلت (عين صالح) ·

النسب قد بلغت على التوالى 9 % و 15 % ومثل هذه النسب بعيدة عن المعدل الوطنى الذى ارتفع الى 40،1 % وبالرغم من تحسن عمليات الاحصاء من 1966 الى 1977 ·

واما نسبة تامنغست التى تقترب من المعدل الوطنى ، وهى 42 % فهى ترجع من دون شك الى نوافد النازحين اليها،وخاصة الى مقر البلدية حيث تعددت مخيمات البؤساء ، بينما ان الزيادة الباهضة التى سجلتها بلدية برج عمر ادريس (74 %) فانه يصعب تحديدها بالضبط فربما يرجع ذلك الى عملية الاحصاء نفسها،اذ أنه من العسير على السكان ان يلتجئوا الى تلك البلدية المحرومة · وأما وضعية عين امناس فهى وضعية خاصة ولا يمكن أن تضاف الى المنطقة التى تنتمى اليها نظرا الى انشطتها المتعلقة بالبترول والغاز وانجاز مصنع صغير لتكرير النفط منذ 1974 (000 300 طن) ·

وهكذا وبالرغم من زيادة 12049 نسمة خلال مدة 1966 ـ 1977 فان الاقليم قد كان مسرحا لحركات هجرية،أى طرد السكان من اماكن مختلفة والذين التحقوا ببعض المراكز وخاصة مقر الولاية والمناطق الصناعية على وجه العموم ·

2) عوامـــل التدهـــور :

هناك عوامل تاريخية قديمة وحديثة،فالاولى تتمثل قبل كل شىء فى اختلال نظام حياة الترحل ، واشتداد عزلة الاقليم منذ الاحتلال الاستعمارى (انظر المقالة عن كفاح القهارص ···) اذ أن اقتصاد السكان كان يعتمد بالدرجة الاولى على حياة الترحل ، ولهذه الحياة قاعدتان : الرعي وتجارة القوافل ، فالرعي قـد تدهور تدهورا محسوسا اثر انقراض المراعى بينما أن التجارة قد تعرضت الى مشاكل عويصة ، ولا يلاحظ الآن من هذا النشاط الا حركة ضئيلة،هذا وبفضل بعض الاجراءات الادارية التى تمنع كل نقل الملوح بواسطة الشاحنات ·

ولا تشاهد الآن تجارة القوافل الا فى منطقة التاسيلى ، حيث تنتقل الجمال المحملة بالملح مرة فى السنة الى شمال النيجر ، وعددها يقدر بحوالى 3000 ـ 4000 جملا ، وحوالى الخمس من هذا العدد يحمل الملح،وحمولة كل جمل تبلغ حوالى 50 كلغ · وفى العودة ترجع القوافل محملة بالدرة البيضاء التى تكوّن أهم مصدر لتغذيـــة

السكان الا أن ثمن هذه المادة الاولية قد ارتفع كثيرا واصبح يمثل من مدة 1945 ـ 1950 الى سنة 1971 عشر مرات، ومثل هذه النتيجة تبين الاخطار التى هددت النظام كله ، زيادة على مخلفات الجفاف الشتائى الاخير الذى استغرق من سنة 1969 الى 1974 بمعظم اقاليم الصحراء الكبرى والساحل والذى ذهب ضحيته عدد كبير من السكان، فضلا عن انقراض قسم كبير من الماشية والبعير .

وكل هذا دفع المواطنين الى الاستقرار والتخلى عن الانشطة التقليدية الا أن ظروف الاستقرار غير متوفرة غالبا ، اذ أن أهم عاملها وهو الماء لاستصلاح الاراضى الزراعية غير متوفر على وجه العموم، بحيث أن الواحة الوحيدة والتي تستحق الذكر لا توجد الا فى جنات ولكن مساحتها محدودة ولا يقدر نخيلها الا بـ 35000 ، ولا تنتج كل نخلة الا حوالى 10 كلغ .

وأما المعطيات الاخرى، فتؤكد ما سبق ، بحيث أن نسبة الامية بالاقليم مرتفعة جدا ، وتكاد تتعمم، لولا المجهودات الحديثة التى تواصلت فى ظروف شاقة، ونفس الملاحظة تتعلق بالصحة، اذ أن كل ما يوجد من تجهيزات الا وانجز اخيرا ولا يتوفر الا فى الاماكن المحظوظة، أى مقر البلديات، واهم التجمعات، نظرا الى اتساع المرتفعات وانعدام المسالك واستقبال الاطارات ...

وهكذا، اشتدت ظروف معيشة السكان بالرغم من قلة الكثافة التى لا تبلغ الا 0,05 شخص بالكلم^2 ، الا أن زيادة 12049 نسمة فى مدة 1966 ـ 1977 قد أثرت بدورها فى ذلك وكما أنها عززت النزوح الريفى كما تبين بلدية التاسيلى، وأمام هذه الوضعية التى لا تتماشى وأهداف الميثاق الوطنى اتخذت قرارات هامة من أجل تغيير الظروف العامة بالاقليم .

2 ـ تأهب الهقار للتحليق :

كبقية الاقاليم الاخرى كان من الواجب أن يعتنى عناية خاصة بمشاكل هذا الاقليم، خاصة وأنه يمثل همزة وصل بين التراب الوطنى وعدد من البلدان الافريقية

وتتجلى المجهودات التى بذلت من أجل ذلك فى شق الطريق الصحراوى، واعداد برنامج خاص بولاية تامنغست ·

1 ـ مواصلة تحقيق شق الطريق الصحراوى :

لقد فشلت جميع الاحلام والمشاريع التى شاعت فى بداية القرن العشرين، والتى كانت ترمى الى انجاز طريق حديدى يربط البحر الابيض المتوسط بالنيجر (2)· كما أن الدراسات والمداولات التى جرت منذ 1962 فى اطار لجنة دولية تابعة للامم المتحدة لا زالت تتواصل بدون أن تجد الوسائل المالية لتحقيق المشروع التالى (3) ·

وكل هذا يبين لنا الظروف والعزيمة التى تم فيها شق القسم الكبير من الطريق الصحراوى داخل التراب الوطنى وبالوسائل المادية والبشرية الوطنية فقط (4) · وبالفعل لقد انطلقت الاشغال فى سنة 1970 ابتداء من مدينة المنيعة (انظر الخريطة) ودشنها الرئيس الراحل يوم 16 سبتمبر 1971، أى ببضعة أشهر من تأميم المحروقات (فيفرى من نفس السنة) وقد تمت أشغال المرحلة الاولى، أى المنيعة ـ عين صالح وطولها 337 كلم فأطلق على المشروع اسم « طريق الوحدة الافريقية » وبعد ذلك شرع فى المرحلة الثانية وهى عين صالح ـ تامنغست (640 كلم) ·

وقد شارك فى هذه الاشغال كلها شباب الخدمة الوطنية، أى نخبة الشبيبة الجزائرية التى دفعت بهذه المناسبة ضريبة العرق، وضحت بدورها من (5) أجل نجاح سياسة التوازن الجهوى وتدعيم العلاقات الاخوية الافريقية ، وبعد خمس سنوات أصبح الطريق المعبد يصل الى مقر ولاية الهقار ، أى تامنغست بعدما دشن يوم 19 جوان 1978، وهكذا كللت مجهودات الشبيبة بالنجاح وتم انجاز 1000 كلم فى ظروف استثنائية، وقد بلغت التكاليف 420 م د ج · ولولا تدخل وزارة الدفاع بفضل

---

2) لتوضيح ذلك انظر :

(2) Attilo Gaudio : La transsaharienne : un défi au passé, Africa n° 103, août-septembre 1978 ; Industries et Travaux d'Outre-Mer, n° 296, Paris juillet 1978.
(3) L. Blin : Algérie et route transsaharienne, Paris I, IEDES, 2e cycle, juin 1978.
(4) Maghreb-Machrek, Paris n° 82, octobre-décembre 1978, pp. 42-50.

5) فقد ارتفع عدد الضحايا اثناء الاشغال عشرون شابا ·

وسائلها وعتادها لما كان المبلغ فى هذا المستوى ، ولنستطيع أن نلتمس مزايا هدا الانجاز فى أول وهلة علينا أن نشير الى المقارنة التالية : ففى سنة 1971 أى قبل مجىء الطريق المعبد الى المنيعة، فان ربط الهقار بالساحل بواسطة شاحنات خاصة التجهيز كان يتطلب مدة 12 الى 15 يوما بينما الآن فان المدة قد انخفضت الى ثلاثة أيام فقط ...

وبقيت الآن مواصلة الاشغال لربط تامنغست بعين قزام ، أى بالمركز الموجود بالحدود الجزائرية النيجرية ، وطول هذه المرحلة يقترب من 400 كلم ، ويتوقع تحقيقه فى سنة 1983، وربما يتم ربط الطريق الصحراوى بالطرق المعبدة بالنيجر فى سنة 1985، وأما الفرع الذى سوف يربط المالى فانه لا يتوقع انجازه الا فى آفاق 1990 .

وهكذا وبعد سنوات من العمل والمثابرة والجهد الجهيد أصبح الطريق الصحراوى واقعا محسوسا فى خدمة المواطنين ، وبالاخص سكان الاقليم المحروم الذى عانى من العزلة طويلا .

2) البرنامج الخاص :

فى الواقع خصص برنامجان للجنوب، الاول يرجع الى سنة 1966 وحظيت به ولاية الواحات وهى المقاطعة التى كانت تغطى الجزء الكبير من الصحراء والمتعلق بالهقار الا أن الاعتمادات المحدودة نسبيا قد خصصت لواحات ورقلة واقليمها، وكذلك للمواصلات فى شمال الولاية . وأما البرنامج الذى حظى به الهقار (6) فهو حديث العهد واعلنت عنه السلطات السياسية بمناسبة تدشين الطريق الصحراوى، أى فى 19 جوان 1979 .

وقد ارتفعت الاعتمادات الخاصة لانجاز وسائل التخزين والتوزيع حوالى مليار من الدنانير، ومثل هذه الوسائل هامة جدا، وستلعب دورا حيويا فى توفير وضمان المواد الضرورية لتغذية السكان . ونفس المبلغ قد خصص لقطاع السكن لا سيما وأن

6) وكذلك ولاية أدرار ودائرتى تندوف وبنى عباس (ولاية بشار) . ومجموع السكان المستفيدين يقترب من 300.000 .

البرامج القديمة لم يحقق منها فى السابق الا جزءا قليـــلا نظرا الى انعدام الشروط الاساسية بحيث أنه من ضمن 780 سكنا مبرمجا فى سنة 1975 لم تخص الا 49 ورشة فقط أى بنسبة 6،3 % (7) ٠

وبالاضافة الى هذه الاعتمادات،فهناك اعتماد آخر يقدر بمليار ونصف من الدنانير يختص بالوحدات الصناعية الصغيرة والمتوسطة،زيادة عن مشاريع كبيرة من بينها مصنع للاسمنت لتغطية حاجيات الاقليم وما يجاوره ، كما أنه تتواصل الاشغـــال لتوسيع شبكة الطرقات واهمها الطريق الذى يربط ورقلة بعـين امناس ، وتـرميم وتوسيع مطار تامنغست ، وتوسيع شبكة المواصلات للراديو والارسال الهاتفى ٠

وأما الاعتمادات الاخيرة فهى تهتم بقطاع التعليم وقطاع الزراعة والمناجم ، فعلى الاول أن يضاعف المؤسسات من أجل تعميم التعليم تدريجيا لا سيما وأن عدد التلاميذ لا زال منخفضا نسبيا بحيث بلغ فى سنة 1975 ـ 1976 : 6732 من بينهم 1817 بنتا فقط،أى بنسبة 26 % بينما أن عدد المترشحين للشهادة الابتدائية لم يتجاوز 390، ولم ترتفع نسبة الفائزين الا الى 28% أى (182) فقط (8) وان كان هناك مجهود محسوس فى تحقيق برنامج المطاعم المدرسية بحيث أن هذه الاخيرة أصبحت تغذى يوميا عددا أكبر من عدد الاطفال المسجلين بالمدارس ، وعددهم فى نفس السنة (1975 ـ 1976) بلغ 7500 طفلا ٠

وأما فى القطاع الزراعى فان البرنامج يتضمن سلسلة من العمليات التى تهدف الى استغلال كل الثروات المائية فى الاراضى الصالحة،بالاضافة الى ترميم القنوات القديمة ، أى الفقارا ، وكذلك تحسين انتاج التمور ، وغرس أشجار مثمرة ، كما تم مثلا غرس مساحة لا بأس بها من التين وغيره ٠

تلك هى أهم محاور البرنامج الخاص التى تهدف كلها الى تأهب الهقار لخوض المعركة الانمائية الضرورية والحتمية لتجسيد المبادىء التى نص عليها المرجع الاساسى

---

(7) Annuaire statistique de l'Algérie, Alger 1976, p. 53.
(8) Annuaire statistique de l'Algérie, Alger 1976, p. 82.

لسياستنا . وهل يمكن للباحث ان يتوقع الصعوبات والعقبات اثناء تطبيق المخطط من جهة ، وأن يتوقع أيضا النتائج المنتظرة من جهة أخرى ؟

3) التوقعات والصعوبات :

للظروف الجديدة توقعات وآفاق ينتظرها الجميع بفارغ الصبر ، وبمزيد من التفاؤل وان كانت هناك صعوبات وعقبات كثيرة لابد من التغلب عليها بكل حزم ومثابـرة ومنهجيـة خاصـة .

1) التوقعـــات :

من التوقعات المباشرة لشق الطريق الصحراوى، والمساعدة على تطبيق البرامج المسطرة، ارتفاع التبادلات التجارية، سواء على المستوى الاقليمى أو المستوى القروى وبالفعل فان الاحصائيات الاولى المتوفرة تبرز هذه الظاهرة المهمة، ففى سنة 1975 أى أثناء مواصلة اشغال المرحلة الثانية لشق الطريق الصحراوى بلغ مجموع حجم النقل بولاية تامنراست 58627 ط. ومثل هذا المبلغ يأتى فى الدرجة العاشرة بالنسبة للترتيب الولائى، ولو توفرت احصائيات أحدث من ذلك لادركنا التزايد، ومن أهم ما فى هذا الحجم المواد النفطية التى بلغت 13661 ط. والتى تسجل ارتفاعا محسوسا نظرا الى الحاجيات المتزايدة من جهة ، ووجود مصنع التكرير بعين امناس من جهة أخرى.

ولتتبع تطور النقل البرى واهميته فى التحولات، علينا أن نحلل انشطة الشركة الوطنية للنقل البرى خلال السنوات الماضية أى ابتداء من سنة 1974 بعد ما أصبحت تواصل مهمتها داخل الصحراء لحساب المنظمات الاممية فى اطار تزويد المنكوبين بالمواد الغذائية، وكذلك لحساب بعض البلدان المجاورة والقريبة من النيجـــر ، وموريطانيا ، ومالى ، وفولتا العليا ، ونيجيريا خاصة . فقد اعدت شاحنات خاصة حمولة كل شاحنة تبلغ 20 ط لنقل البضائع المختلفة لصالح شمال نيجيريا ومدة السفر، أى لعبور 3600 كلم، لم تتجاوز 9 أيام فى سنة 1978، بينما ثمن نقل كل كلغ

لا يزيد عن 2 دج (9) ، ومثل هذا السعر يخدم مصالح البلد المذكور، وبالتالى يبين مزايا النقل البرى، خاصة وأن النقل البحرى يتطلب وقتا طويلا بالنسبة لشمال نيجيريا ، بعدما أصبح ميناء ليقوص يعانى أزمة من أخطر الازمات ، وهى اختناق الميناء ، زيادة عن صعوبة ربط الشمال بالميناء (10) .

ونفس الدور تقوم به الشركة الوطنية فى الناحية الغربية، اذ أنها تربط العاصمة بمدينة قاوو بمالى فى ظرف 6 أيام فقط (2700 كلم) ، وأما مدة ربط العاصمة بنيامى بالنيجر فهى تبلغ 8 أيام فقط (3150 كلم) ، ومن أجل القيام بهذه المهمة عززت الشركة الوطنية وسائلها اذ أنها تجهزت بـ 700 شاحنة خاصة للنقل البرى الصحراوى، تدعمها سبع وحدات تتوفر فيها كل الخدمات، وهذه الوحدات أسست بأهم المدن بالجنوب، كما أنه ابرمت معاهدات تجارية مع البلدان المعنية بالامر لتدعيم العلاقات التجارية، كما أن الشركة الوطنية للنقل البرى تتعامل مع الشركات الاجنبية مثل الشركة البريطانية Seevar التى كانت فى حاجة فى سنة 1976 الى نقل بضائع من لندن وروتردام بهولاندا الى مدينة كانو بشمال نيجيريا ، ومنذ ذلك العهد تعددت العمليات فى مصلحة الجميع وخاصة الجزائر التى تتحصل بهذه الطريقة على توفير العملة الصعبة، ولكن لابد من مواصلة العمل والمجهودات لاستغلال الامكانيات، اذ أن النقل المتواصل لا يتعلق الا باتجاه واحد، وهو الاتجاه الشمالى الجنوبى، ولا يتعلق بنقل البضائع من الجنوب الى الشمال، بينما أن البلدان الجنوبية وهى نجيريا ومالى باستطاعتها أن تصدر انتاجها عبر الطريق الصحراوى، وهذا لا يتحقق الا باعادة النظر فى الانظمة التجارية التى تسيطر عليها الشركات العالمية .

هكذا تتجلى لنا الآفاق فى هذا القطاع الحيوى سواء بالنسبة لاقليم الهقار أو البلدان المجاورة له والقريبة منه، خاصة وأن أراضيها لا تخلو من ثروات باطنية كما بينته التنقيبات والابحاث خلال هذه السنوات الماضية، ففى الهقار تتواصل الاعمال

(9) مقابل 4,5 دج للنقل الجوى وان كان هذا الاخير يتطلب وقتا طويلا نظرا الى العمليات الخاصة بالجمارك والادارية .

(10) P. Balta : L'aventure de la transsaharienne, « Le Monde » du 19 mai 1977.

لتحديد المواقع واهمية المناجم التى تم العثور عليها أخيرا فى اطار الابحاث التى أشرفت عليها الشركة الوطنية للابحاث واستغلال المناجم باقليم الهقار بعد ما انجزت محطة خاصة تضم مخبرا بعين ايكر فى سنة 1970 ـ 1971 ومخبـــرا ثانيا (11) بتامنغاست كل واحد منهما يضم تجهيزات حـديثة ومدققة . الاشغال الاولى تكللت بالنجاح فقد عثر على مواقع تأوى مواد اشعاعية مختلفة تشير اليها الخريطة 2،ومن بينها نذكر الاورانيوم بتمقاوين، والنحاس بتين شفاو فى الشمال الغربى ، والذهب بعين ههـــاو بالقرب مـن المـوقع السابق الذكر، وكذلك بسيلت غـرب تامنغاست ، والدوفران بأقصى الشمال، ومواد أخرى، والغاية من هذه المرحلة الحاسمة دراسة وتحليل ظروف وشروط الانتاج وخاصة الشروط الرئيسية مثل الماء ، فعلى هـذه الثروة يـسـ مثلا استغلال منجم تمقاوين للاورانيوم، كما أن تحديد حجم المناجـــم يكون العامل فى استخراج أو عدم استخراج الثروات، ومن المتوقع أن المرحلة الثانية أى مرحلة الاستغلال لا يشرع فيها الا بعد سنة 1980، ومن المحتمل الشروع فى انجاز وحدة للذهب وأخرى للاورانيوم من أجل استعماله كمصدر للطاقة الكهربائية .

وقد نجم عن هذه الانشطة تشغيل عدد لا بأس به من السكان عبر الورشات المختلفة، كما أن تعدد هذه الاخيرة كانت وسيلة للتكوين والتجربة بالنسبة للعمال المحترفين والفنيين الذين أتوا من باقى التراب الوطنى، فتعرفوا جميعا على ظروف الاقليم، وأتموا دراستهم النظرية، ونفس الملاحظة تذكر بالنسبة للشبيبة التى حققت ولا تزال تحقق الطريق الصحراوى .

---

11) بالاضافة الى مخبر آخر بسكيكدة، ويضم بومرداس بالقرب من العاصمة مركبا من المخابر العصرية يمثل الاداة الفعالة لتدعيم قطاع المناجم، وكذلك الطاقة (النفط والغاز) أى القطاع الحيوى بالنسبة للصناعة .

وزيادة عن هذه الابحاث ، فان المجهودات تتواصل من أجل توفير الخدمات العامة (12) الضرورية فى مجال الصحة والتعليم والادارة،خاصة وان التقييم الادارى يهدف الى تقريب المواطنين بالادارات،ففى هذا الاطار تم انشاء مركز للتكوين الادارى وقد ضم الاخير فى سنتى 1975 ـ 1976 : 54 شابا وثلاث فتيات،ومن دون شك أن هذا العدد سيرتفع وسيلبى بعض الحاجيات الاقليمية والمحلية التى ستتضاعف بدون انقطاع،نظرا الى متطلبات القطاعات وهنا لابد من الاشارة الى ما سينجر عن هذا العجز.

2 ـ العقبات :

فاذا كانت هناك عزيمة وسياسة واضحة،واذا كانت هناك نتائج كما يشهد عن ذلك شق الطريق الصحراوى،ومواصلة الابحاث المنجمية،فعلينا أن نلح على المشاكل والصعوبات المختلفة ، كما يمكننا أن نلتمس ذلك فى انجاز حتى ابسط برنامج كبناء مدرسة فكيف يمكن احترام المدة المعينة،اذ أن توفير كل شرط الا وهو مرهون بعوامل كثيرة يصعب على المسؤولين التغلب على العقبات ، وكذلك الأمر بالتجهيزات واستعمال الآلات ، اذ أن الفنيين لا يوجدون ، زيادة عن عدم وجود قطع الغيار ، وفى هذه الحالة ندرك أيضا اهمية النقل الجوى ودوره فى تزويد وتموين الاقليم فى أقرب الوقت، ولذا من الضرورى الاعتناء بهذا الميدان وتجنيد كل الطاقات لتعدد الرحلات الجوية بين الاقليم والشمال .

واما الصعوبات الاخرى فانه لا يتغلب عليها الا بواسطة تغيير الاوضاع الراهنة فى مختلف الميادين،وذلك لخلق روح وافكار سليمة تتماشى والسعى الى الامام .

---

12) علينا أن نشير بهذا الصدد الى دور المواصلات التى اصبحت متوفرة بعد بناء محطة بالاقليم مرتبطة بالمحطات الفضائية فأصبحت تغطى المنطقة ببرامج التلفزة ، كما أنها دعمت المراسلات التليفونية وهكذا قفزت هذه الاخيرة من 462000 مراسلة فى سنة 1977 الى مليونين مراسلة فى سنة 1978 أى بنسبة 326 % فى ظرف سنة واحدة فقط . واما الخدمات البريدية فقد سجلت نسبة 20 % والعمليات المالية أى الحوالات وما يلحق بها كحسابات الصندوق الوطنى للتوفير فقد بلغت 18 % . وهكذا أصبحت مصلحة أقصى الجنوب مجهزة بأحدث التجهيزات العصرية الا أنها لا زالت تشكو من قلة الفنيين ..

الخلاصة :

أوضح هذا التحليل الموجز المرحلة الحاسمة التى تمر بها احدى الاقاليم أكثر تخلفا وعزلة وحرمانا بالتراب الوطنى، وان كان بالماضى البعيد، وخاصة قبيل الاحتلال الفرنسى لايشكو من قلة الموارد التى وفرتها التبادلات والتى لم يبق منها الآن تقريبا شىء، بل ظهرت هناك ظواهر خطيرة حديثا، فهددت حياة العديد من السكان واطردتهم من اماكن كثيرة كما تبينه الاحصائيات الديموغرافية بالرغم من التزايد الطبيعى الذى أثر بدوره على المستوى العام ٠

وأمام هذه الوضعية وبالضبط قبل تدهورها اعتنت السلطات بهذه المشاكل المتعقدة وشرعت فى توفير الشروط الضرورية الرئيسية التى من الممكن ان تمهد طريق الانطلاقة كما يشهد عن ذلك كل المجهودات التى تجسدت فى شق الطريق الصحراوى الرابط الآن ومنذ 1978 تامنغاست بالشمال، وكذلك المجهودات الاخرى المتعلقة سواء بالابحاث المنجمية أو البرنامج الخاص الذى يهدف الى تأهب الاقليم لخوض المعركة فى الميادين المختلفة وان كان الطريق شاقا وطويلا وفى حاجة الى تجنيد طاقات متعددة بدون انقطاع ٠